حميدة قطب



دار الشروق



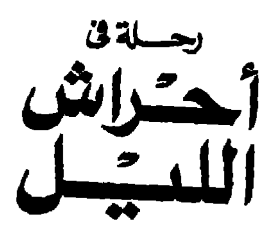
الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)


رحلة في
أحراش
الليل

الإهـــــداء

أخى الحبيب . . . سيد

إليك فى عـالمك العلوى الذى اصطفاك الله له، بفضله سبحانه . . أهدى هذه المجموعة القصصية الأولى، تحكى قصة معاناة عشناها معا؛ والفضل فيها ـ بعد الله سبحانه ـ راجع إليك . . فأنا وما أنتج ما حييت ـ بفضل من الله ـ إنتاج من إنتاجك . .

حميدة قطب

المقـــدمة

لم يكن فى نيتى طوال السنوات التى انطوت منذ انتهاء مرحلة من مراحل عهد القهر الكبير الذى ابتلى به المسلمون تُعد قمة من قممه الرهيبة؛ ثم خروج من تبقى فى سجونه إلى عالم الأحياء؛ لم يكن فى نيتى أن أحكى شيئا مما دار هناك فى المجزرة، فقد أحببت من كل قلبى أن أحتفظ بها لى، ولنا عند الذى يقدر الأقدار، ويزنها بقدرها.

ولكن أصواتا كثيرة عارضتنى فى أمر ذلك القرار، وألحت على أن أكتب، وكان رأيها يستند أساسا إلى اعتبار أن التجربة - مع أنها شخصية - إلا أنها فى الحقيقة ملك للمجموع، خاصة هؤلاء السائرين فى الطريق الوعر، يعانون حتى الآن، وحتى الغد الممتد فى علم الله؛ من أشواكه ودمائه وآلامه وآماله.

هذه باختصار قصة هذه المجموعة وإخراجها من مخابئها العميقة فى القلب إلى الوجود!

ولست أدرى - حقيقة - فى أى خانة من خانات «الكتابة» أضعها، فأنا حتى الآن، وبعد أن أتممتها، لا أستطيع أن أضعها يقينا فى تصنيف معين من تصانيف الأدب. . بل أكثر من ذلك، فإنى لا أملك أن أقحمها على عالم الأدب أصلا! فقانون الأدب ذاته يدعونى أن أترك ذلك للمتلقى؛ يقيمها بما تحمل فى كيانها من ملامح الأدب وشروطه الحقة، ويضعها فى الخانة التى تصلح لها. .

والحق أنني لم أتدخل كثيرا فى اختيار الثوب الذى تخرج فيه تلك الحقائق، ولكنى تركتها هى تملى على، وتتخذ طريقها الذى تريده من خلالى!

والحق أن أشد ما حرصت عليه فى كتابتها كان هو الصدق، صدق الحدث أولا، فهى تاريخ، نعم، فهى تحكى قطاعا من مسيرة العمل الإسلامى بصوابه وخطئه ومعاناته؛ هذه المسيرة التى لا أشك لحظة فى وصولها إلى هدفها الأسمى، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا فى أرضه؛ مهما تكن الأخطار التي تعترضها، أو الانحرافات التى تنتابها فى مرحلة أو أخرى من مراحل سيرها فى الطريق الصعب، الملبد بالشوك والغيوم والدماء..

وهى ثانيا، تعبير إنسانى عن «الإنسان» من خلال معاناة قد تكون ليست شائعة الحدوث لفرد إنسانى أو أفراد، على الأقل هى ليست تجربة الغالبية الواسعة من المجتمع الإنسانى!.. هى إذن تعبير عن «الإنسان» كما هو، بطاقات قوته وبنقاط ضعفه، بلحظات إشراقه وتطلعات روحه، وبظلمات نفسه وساعات خذلانه وهو تحت مطارق العذاب حين يكون فى معية الله فى أوج توهجه، أو حين تغيب عنه معية الله ولو للحظات قليلة فيسقط فى تيه الحيرة؛ حين يعلو فوق ذاته، فوق رغائب هذه الدنيا الصغيرة، أو حين يستنيم ساعة لأوهاق قبضة الطين فتغلب رغائب الحياة الدنيا!

وهى ثالثا، محاولة للتعبير عن الإنسان المسلم، بوجهته الخاصة ورؤيته الخاصة ومعرفته الخاصة بالله وبطريقه الذى أحبه ورسمه للإنسان كله وقال بشأنه: ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. تعبير له خصوصياته عن هذا الإنسان بإشراقات

روحه وتطلعاته إلى الملأ الأعلى، وبلحظات ضعف بشريته حين تتكاثف عليه قوى الشر؛ وحين تخذله قواه فيهوى برهة، ثم يجاهد خذلانه فيصعد من جديد، وحين يتغبش أمامه هذا الطريق «المستقيم» فيتوه قلبه وفكره في الغموض والغبش، ثم يعود يفتش، يتوخى الأضواء الآتية من بعيد فيهديه الله إلى النور!

وأعرف أن هناك من يحب أن تكون الكتابة عن الإنسان المسلم إبرازا للحظات قوته وحدها؛ أو تغليبها دوما على الأقل، وأعرف أن معنى من معانى الصبر والقوة والانتصار عندهم - خاصة والمسلمون فى مرحلة من مراحل ضعفهم وقهرهم - يتمثل أساسا فى إخفاء لحظات السقوط فى الضعف أو اليأس أو الشعور بالهزيمة حتى لو كانت هزيمة مؤقتة، ويرون أن الألم صورة من صور الضعف وحالة من حالات الهزيمة! . . ولكنى أرى فى هذا غير رؤيتهم . . فالضعف فى الكيان البشرى أمر فطرى مقبول مادام فى حدوده المأمونة التى لا تسقط الإنسان فى مهاوى الخطأ، والألم فى أعمق حالاته هو شعور إنسانى نبيل، ما لم يتخط حدود الألم إلى شفا الانهيار! . . وقدرة الإنسان الإيمانية تقاس بمدى قدرتها على مقاومة هذا الضعف، والتغلب على هذا الألم ثم الثبات بعده على الطريق؛ وكلما ازداد الشعور بالألم، وتم - رغم ذلك - الثبات على المعاناة، كان الانتصار أقوى تحققا! . . من أجل ذلك قد آثرت أن أترك التعبير يأخذ طريقه إلى «الإنسان» كما هو، بصدق كامل وبغير تزيين!

ولا أبالغ حين أقول إننى قد جرت على الواقع ذاته أحيانا، وأنا أصور مشاهد الألم بكامل أعماقه ومساحاته، ولا أعطى نفس القدر من المساحة لتصوير مشاعر السكينة والسعادة والاستعلاء التى كانت حقيقة هى

الأخرى! . . . فالحق أنه فى هذه التجربة الصعبة، كان ينبثق من خلال ضراوة المعاناة فى أحيان كثيرة، توهجات سعادة تملأ القلب، وإشعاعات أنوار تفعم النفس وترف بها الروح؛ ومعارف لدنية لا يستطيع الإنسان أن يكتسبها من الكتب ولا من المعاناة اليومية الدارجة، ولا حتى من قراءته للقرآن، وحياته ثابتة آمنة مستقرة، بعيدة عن حقيقة الجهاد والمعاناة فى سبيل الله، حيث يزداد القلب الإنسانى قربا من الله! . . وقد يكون ذلك التقصير ناشئا عن الخوف من أن يمس القلب طائف من رياء فيحبط العمل! فأحتسب ذلك عند الله إن شاء الله . .

قلت إنى لا أستطيع أن أصنف هذه المجموعة التى نطلق عليها تجاوزا «قصصا قصيرة» فى خانة القصص! فذلك موكول إلى المتلقى الناقد؛ وأنا لست بناقد؛ . . فقد يكون فيها ما يدخلها حقا فى باب القصص، وقد يكون فيها ما يخرجها منها؛ وقد يكون فيها ما يضعها فى خانة السير الذاتية، وقد لا تنطبق عليها شروط السير الذاتية بكاملها؛ وهى قد تجمع بين ملامح القصة الطويلة والأقصوصة معا؛ وهى قد تخرج من ذلك كله إلى شىء آخر جديد. . وهى قد تدخل ساحة الأدب من بابها الواسع وقد لا يقبلها أصلا فى رحابه!

أقول إن هذا كله لا يشغلنى كثيرا، فهو من شأن غيرى! ولكنى فقط أحب أن أسجل هنا أننى لم أتدخل - كما أشرت إلى ذلك من قبل - فى الصورة التى تخرج عليها تلك التجربة، ولم أتدخل كثيرا فى صورة التعبير، ولكنى تركته يخرج على سجيته، فجاء على هذه الصورة التى أرجو لها أن تسلس فى نفس القارئ فلا تعنته، ولا يملها!

أبرز شىء فى ملامح هذه الأقاصيص - إن أعطيناها هذا الاسم، ولو مؤقتا - هو طغيان المساحة الداخلية بكل أنواعها - شعورية وفكرية وتخيلية

ـ على الحدث! . . كذلك ندرة الحوار «الديالوج»؛ وقلة «التعامل» مع «الخارج»!

ويبدو لى أن هذا أمر منطقى مع طبيعة الوضع والموضوع الذى تعالجه هذه الأقاصيص؛ ففى السجن عموما، بله «السجن الحربى» ـ وإن زدنا على هذه الوضعية، أن الإقامة فيه بالنسبة لى كانت انفرادية أكثر الوقت ـ فلا مجال إطلاقا لكلمة «الخارج»! إلا ما يتراءى فى الخاطر ويهجس به القلب! أى ما يأتى من «الداخل»!

والسجين بين الجدران الأربع، لا يدخل «الحدث» فى حياته كثيرا، بل لا يصادفه إلا نادرا! . . والحدث فى ذلك المكان كان يتمثل أساسا فى ألوان التعذيب التى استعملت فيه بكثرتها وبشاعتها وتفننها فى الإيلام، وفى عدد ضحاياها؛ ولم يكن هدفى فى هذه الأقاصيص، تسجيل ذلك رغم كل أهميته التاريخية، وإنما كان هدفى الأكبر هو تسجيل حالة إنسانية، للإنسان المسلم صاحب الطريق المتميز، فى مواجهة الحرب الحاقدة التى يشنها الباطل دوما ضد الحق وتتعدد فيها الطرائق والسبل؛ فتصل إلى درجات من التوحش تذهل العقل وتدمى القلب!

وفى السجن لا مجال للحوار؛ غير الكلمات القلائل التى تفرضها مقتضيات العيش الضيقة، أما ما يقع من نقاش أثناء دورات التحقيق التى استمرت عاما كاملا، فلم يكن تسجيلها هدفا من أهدافى أيضا؛ فلقد كان أكثره أقرب إلى الهزل الملفق! وإن كان من الأهمية بمكان أن يسجل، فلقد كانت القضية كلها مهزلة كبرى!

وبعد . . . فإنى أقدم جهدى هذا . . وهو ما منَّ الله على به، أقدمه لله قبل كل أحد وقبل كل شىء، خطوة فى الطريق الطويل ولبنة فى البناء الشامخ بإذن الله، فأرجو الله أن يتقبله خالصا لوجهه . . .

ثم بعد ذلك أقدمه هدية للسائرين فى الطريق الشاق إلى أنوار الملأ الأعلى، لعلها تؤنس وحشتهم فى ظلمة الغلس حتى يبين الفجر . .

وأتقدم بها للقارئ من كل فج، الذى يلتقى قلبه الإنسانى مع «الإنسان» فى معاناة الإنسان . . أو يتوق إلى التعرف على حقائق حقبة من أظلم حقب التاريخ البشرى؛ خاصة أولئك الذين عاشوا فى أبخرة الدعاية الفاجرة، التى صورت المجرمين أبطالا، وجعلت من عبّاد الله الأتقياء مجرمين وقتلة!

فأما الناقد ـ والنقد حق لكل قارئ ـ فلى عنده رجاء حار؛ أن يكون معى صريحا وهاديا إلى الصواب، فيدلنى على مواطن الخطأ والضعف فى هذا العمل . . وأقول له: رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى!

حميدة قطب

١

السلاسل

لم تعد ساقاها تطيقان هذه الوقفة المرهقة، فكوة الباب الصغيرة التى ترتفع عن مستوى بصرها تضطرها إلى الوقوف مشبوبة القدمين، مرتكزة بثقل جسمها كله على أطراف أصابعها؛ متقلصة الساقين مشدودة العضلات فى عصبية متوترة. . لحظات. . لا تزيد على لحظات، ثم تعجز عن الاستمرار فتهبط بقدميها إلى الأرض فى إعياء وضيق. . لحظات تائهة تقف فيها وسط المربع الصغير الذى يكون أرض الزنزانة. . تدور ببصرها الحائر على الجدران المغلقة بلا منفذ حتى تستقر به على تلك الطاقة الصغيرة المفتوحة فى أعلى إحداها؛ تلك الطاقة الضيقة المتشابكة القضبان طولا وعرضا، تحكم الطوق حول القلب المختنق. . لا ترى منها شيئا، اللهم غير قطاع صغير محدود من رقعة الفضاء الفسيح فى الخارج. . لا نأمة فيه لحياة إلا فى أوقات نادرة حيث تمر حدأة عابرة؛ أو عصفور صغير منطلق فى سرعة إلى عشه البعيد المجهول. . لا منفذ إذن غير هذه الكوة الصغيرة فى أعلى الباب الأسود الصامت. . الكئيب كوجه الليل المدلهم!. . منها تطل على الحياة!. . أية حياة! فمن ورائها يقبع الفناء الواسع الممتد، حيث تتطاول الأضلاع الأربعة لمبانيه المخيفة. .

كل ضلع منها أعداد هائلة من الحجرات المتلاصقة ذات طابقين، تفتح أبوابها كلها على الفناء الواسع . . الصمت يخيم دائما على المكان رغم وجود هذا العدد الهائل من الحجرات . . فأبوابها المغلقة طوال الوقت لا تفتح غير لحظات قصيرة معدودة لا تكاد تلحظ، تفتح واحدة فى إثر الأخرى، تفتح واحدة ثم تغلق سريعا لتفتح التى تليها كأن فيها سرا هائلا يخشى عليه أن يتسرب ! . . لحظات خاطفة ريثما يدخل الحارس بجفنة الطعام، أو بالكوز الصغير يحمل قطرات من الماء إلى الظمأى داخل الحجرات . .

ما أشبه هذا المبنى بمبانى القبور فى صحراء مصر . . ما أشبهه بها فى كل شىء؛ فى تراص الحجرات الواحدة بجوار الأخرى دون لمحة اختلاف أو علاقة حياة؛ وفى انغلاق الأبواب دوما على ساكنيها، اللهم إلا حين يفتح حارسها الباب لأحد الزائرين، لحظات لإلقاء السلام على الموتى! . . ثم تعود بعدها إلى الانغلاق والصمت!

لا صوت فى هذا الفراغ الشاسع غير صوت الجند يجلجل بالوعيد والشتائم . . لا تنبعث همسة واحدة من داخل الحجرات؛ حجرات هذه المقبرة الكبيرة الرهيبة!

لكن ساعاتها . . ساعات اليوم كله إلا القليل . تتقضى، رغم هذه الوحشة المطبقة، فى هذه المحاولة الشاقة، مشرئبة العنق، متقلصة الساقين، مشدودة القدمين، مرتكزة بثقلها على أطراف أصابعها؛ حتى إذا أنهكتها الوقفة الصعبة، حتى إذا أنَّت عضلات ساقيها . وأحست بعظام ظهرها تصرخ ألما؛ وحتى إذا كل بصرها من التحديق فى الضوء المتوهج إلى لا شىء إلا صمت الأبواب السوداء المتراصة كنذير فناء؛ ألقت بقدميها إلى الأرض واسترخت فى إعياء؛ ووقفت تدور ببصرها

الحائر على الجدران المغلقة بلا منفذ ؛ حيث تستقر من جديد على الطاقة الصغيرة فى أعلى الجدار ؛ تحدق فيها وتنفذ ببصرها المتعب إلى رقعة السماء الساكنة حتى من غيمة عابرة تتحرك! . . ثم ما تلبث أن تعود ملهوفة إلى الكوة الصغيرة فى الباب المسدود تبحث فيها عن منفذ إلى الحياة!

هناك فى الفناء على مد البصر ، تنبض أحيانا حركة الحياة ؛ حين يتحرك أحد الحرس المنتشرين فى المكان إلى هنا أو إلى هناك ، إلى دورة المياه التى يقع مبناها على جانب من جوانب ذلك الفناء ؛ أو إلى أحد الأبواب المغلقة يفتحها ليقذف إليها صحفة الطعام ، أو ليخرج من بداخلها إلى دورة المياه ؛ عندها يذخر الصمت بالحياة! . . بأصوات السياط تفرقع ، وأصوات الأفواه تدفع بالسباب . . أما مواسم النداء إلى ساحات العذاب فهى تذخر دائما بعواء الحياة فى ليل أو نهار!

أما فى الصباح الباكر ، فإن الفناء الصامت يحفل حقا بالحركة ؛ هناك ينطلق الجنود السجناء بستراتهم الزرقاء يروحون ويجيئون ، يكنسون ويرشون الأرض بالماء ، يحملون الصفائح المملوءة ليفرغوها فى البرميل الكبير وراء دورة المياه ثم يعودون ليملئوها من جديد من ذلك الخارج البعيد الذى تهفو عيناها لأن تراه ، فلا يصل إليه بصرها المحاصر وراء الكوة الضيقة .

وفى الصباح تصحو العصافير التى تقطن الشجيرات الصغيرة القليلة الثابتة فى حوض الزرع المقابل لحجرتها ، تشقشق وتقفز فى حركة دائبة من غصن إلى غصن لا تمل ؛ تطير ثم تعود ، تنقر الأرض هنيهة لتقفز إلى شجيراتها من جديد .

وهناك تتمايل أعواد الزرع الرفيعة يشدها الهواء إلى هنا وإلى هناك

فلا تكف عن الحركة . . لا منفذ إلى نبض حياة غير هذه الكوة الضيقة فى أعلى الباب الجاثم كالليل الكئيب!

انطوت ساعات النهار من يومها الثالث فى هذا القفر المخيف؛ وبدأ غبش المغيب يغلف الأشياء كلها خارج الكوة بغلالة من غموض، حتى لون الأبواب السود، حتى لون الحوائط الترابية؛ وقد بدت أجساد الجند المتحركة كالأشباح، وامحت من وجوههم الملامح والقسمات فغدوا جميعهم رمزا . . مجرد رمز لبطش كاسر كريه! . . . أما العصافير فقد ذهبت إلى أعشاشها بعيدا . . بعيدا فى ذلك التيه المجهول الذى لا تعرف مداه، وخلا الصمت من أصوات فرحتها الغريرة . . والعيدان الرفيعة شملها غبش الغموض فتلاصقت وتداخلت وبدت كتلة واحدة خرساء . . وعيناها اللتان أنهكهما التحديق، غشتهما غشاوة من رهق . . أما ساقاها المجهدتان فقد ملتا الوقوف . . فلتجلس إذن . . فقد حانت الليلة الرابعة . . فى هذا الجحيم! . . لتجلس؟! نعم . . لا مفر! . .

وقفت لحظات أمام الفراش الملقى على الأرض بجوار أحد الجدران! . . كم هو كئيب هذا الفراش! كم هو قذر وكم هو جاف! ولكن . . لماذا تبعد الخطى عن الحقيقة الكبيرة التى عليها أن تتملاها؛ مالها لا تقول لمشاعرها المترفة كم هى بعيدة عن حقيقة «الجهاد» الذى كانت تدعو إليه! . . كم أفسدت كيانها نعومة العيش وطراوة الحياة فاعتادت البيت الناعم والفراش الوثير! وكم بعدت الشقة بين واقع المسلمين المر وعيشهم الغارق فى الرخاء! . . كم داهمهم الوهن الذى أنذر به الرسول الكريم منذ زمان بعيد!

نعم . . تعرف وتقر! ولكن كيف تنجو من شباك الاعتياد الطويل،

كيف تكف عينيها عن الإبصار ومعدتها التى تنوء بالرائحة من مواصلة الغثيان؟! تتمنى لو استطاعت أن تجلس دون تأفف! تتمنى أن تغض الطرف عن بقع الدماء والصديد التى تفترش كل شبر فى هذه الحشية! . . تلك الدماء التى تثير فى قلبها ذكريات ماض مرير؛ فالأجساد المعذبة من قديم تترك ذكرياتها على كل شىء فى هذه الحجرة الكئيبة، الحشية والجدران والأرض. . الحشية التى تداولتها الأجساد المعذبة مرات بعد مرات، تنزف عليها الدماء ويلطخها الصديد. . كلها دماء المؤمنين، فقد خصص المجرمون منذ استحكمت قبضتهم، هذا الوكر المروع لسحقهم، وإفناء شوكتهم بتفانين العذاب! . . كيف تنام؟! وكل ما تراه عيناها ويلمسه جسدها يذكرها بالأمر كله. . بالمحنة القارسة والجولة الفاشلة!

لتجلس. . لا مفر من ذلك، فلقد هبط المساء. . ولقد ماتت بقعة الحياة خارج الكوة، وانسحبت من الغرفة الصغيرة المقفلة آخر أشعة النهار، وترامى إليها بصيص ضئيل من ضوء المصابيح البعيدة ينسل خافتا متلصصا عبر الكوة الصغيرة، ولم يعد من الممكن أن تظل تقطع فراغ الغرفة الشاحب ذاهبة آيبة كما تفعل أوقات النهار! فغبش الظلمة المخيف ووقع قدميها فى الصمت ينبعث منهما إلى قلبها وجسمها قشعريرة مفرطة. . لتجلس، ولتوطن حسها المترف على هذا الواقع، ولتأخذ بقية أعضائها نصيبها من العذاب!

احتواها الفراش على الرغم منها كجدران قبر؛ جلست منقبضة الساقين، ثم أسدلت على الجسد المتكور ذلك الغطاء الرمادى اللون تتناثر فيه هو أيضا بقع الصديد والدم والطين، كل ما فى هذا الجب الرهيب مصبوغ بصبغة المجزرة. . الهواء، رغم حرارة أغسطس القائظة طوال النهار؛ ينصب من الطاقة المفتوحة فوقها انصبابا ثقيلا لاذعا؛

والأرض ذات النتوءات بالغة القسوة من تحتها، لا يفصل بين عظامها وبينها غير هذا القماش البالى الباقى الذى يكون وسط الحشية، أما أطرافها فهى أشد قسوة من نتوءات الأرض!

* * *

هل كانت تتصوّر حين جيء بها إلى هذا الجب، أنه من المعقول أن تبقى هنا حتى الليلة الرابعة! . . حين قاست أول ليلة؛ حين قادها إلى هذه الزنزانة ذلك الجندى الصخرى الملامح ونهرها بصوته الأجش، بعد أن انتزعوا منها كل أدوات الحياة الضرورية التى حملتها معها فى هذه الحقيبة الصغيرة؛ ثم أغلق عليها الباب؛ . . وحين صك قلبها لأول مرة صرير الباب الرهيب يغلق، يقطع بينها وبين الحياة، بينها وبين ضرورات العيش؛ استيقنت أنها لا يمكن أن تبقى فى هذا المكان حتى الصباح!

لم تنس تلك الليلة؛ وقائعها وتفاصيلها ظلت محفورة فى أعصابها وذاكرتها رغم ما انهال فوقها من عجائب تحملها الساعات واللحظات، كانت ليلة هائلة لم تعبر حياتها من قبل لها شبيها!

وها هى الليلة الرابعة! . . لا شىء غير هذا العذاب الذى يفرش ظله فوق النهار والليل؛ لم يستدعها أحد ليسألها فى شىء؛ وكأنما دفنت فى هذه المقبرة المظلمة بغير عودة؛ وانقطع ما بينها وبين كل شىء . . الحياة والأهل والأصدقاء والأمنيات؟! . . وبدا جرس الكلمة غريبا على قلبها موجعا . . أوَكان لها فى يوم ما حياة؟! . . وأمنيات؟! . . وعلى غير وعى منها تسربت إلى خاطرها الذكريات غضة ماتزال! . . هنالك فى بيتها الجميل فى الضاحية، حين يحتويها الفراش الوثير، ويسكن الليل وتتواكب فى قلبها الرؤى، حيث تضن بالساعات على النوم، وبالريشة الزاهية الألوان مفعمة بالأمل وبالحياة تجوس خلال المستقبل، ترسم

دروب الطريق، تزين أيامه بالألوان البهيجة، خط هنا ونقطة هناك، بسمة هنا وفرحة هناك، واللوحة الهانئة تتحرك، توغل فى الزمن، تزحف إلى الأمام؛ تفرش الطريق بالحياة والنور والرجاء! كأنما النهار لا يعقبه ليل، والنور المتلألئ لا تدهمه ظلمة!

أفلم يكونوا قد عاشوا من قبل ظلمات دنياهم عشر سنوات طوال عجاف؛ عشر سنوات من القلق ومن رهق العيش، ومن عذابات التبعثر فى سجون الطغاة! . . ثم جمع الله شمل الأسرة المتحابة المتلاصقة القلوب بعد تمزق طال، وعاد إليهم قائدها الغائب فى براثن العسف سنوات وسنوات؛ عاد إليهم شقيقها الأب بعد الغيبة الطويلة ليطوى ذراعيه على الأسرة اليتيمة يضمها فى حنان وحب، فى إشراقة حلوة بعد انطفاء طويل؛ يبعث البسمة فى الثغور، البسمة التى غاضت عشر سنوات طوال.

الصور تتراءى فى سلسلة طويلة ثقيلة . . ذلك الصباح البعيد، حين دق جرس الهاتف فى بيتهم الخاوى من الفرح، يطلق فيه فرحة غامرة . . ينبئهم بعودة الشقيق المفاجئة المذهلة . . لحظة تدهم ناظريها؛ حركتهم فى البيت، وجوههم، أصواتهم . . الصور تزحف إليها . . تطوقها . . تضغط على قلبها . . انتفضت فى شهقة عالية رغم إرادتها واحتوت جسمها رعشة عاتية!

تصد عنها بكل قواها الصور الزاحفة، ولكنها تزحف تزحف . . ها هى الدار تتلألأ بالنور . . فى القلوب، فى الأمنيات الوضيئة تكشف الدروب، ترسم الطريق، توغل فى الطريق إلى الأمام بلا عائق؛ بلا ظلمة بلا هموم؛ وريشة الخيال المحلق لا ترسم بقعة سوداء فى اللوحة المضيئة! . .

الحياة شابة متوثبة تنبض فى كل شىء، فى كل أحد، فى كل مكان فى الدار فى الليل أو فى النهار! . . لا وقت يضيع، العمل المحبب يستغرق كل الوقت، والبيت الواسع يمتلئ بالأحباب، يأتون من كل فج ينهلون من العلم الغزير، المرتجى منذ زمن طويل . . فإذا حاك فى القلب قلق بدده النور . . وهل يمكن أن يكون غيـر ذلك؟! . . أليس هذا هو المكافأة الموهوبة من عند الله جزاء صبرهم الطويل واحتسابهم؟! . . ألم يعيشوا السنوات الطوال بلا حياة مهددين فى كل شىء، بلا أمل! . . يقطعون أيام عمرهم الغض راكدة داكنة، الأيام والأمسيات كلها ليل مظلم؟! السجون تبتلع فى حياتهم كل ومضة أمل وكل إشراقة حياة! . . تظلل كل طريق بغبش الغروب، بالخوف، بالرؤى المفزعة، وبالفراق! . . آه . . الفراق! . . رنت الكلمة تدوى هابطة إلى أبعاد سحيقة . . الدوار يلفها فتحس أنها تهبط وتهبط إلى غير قرار . . إلى أين . . إلى أين هى ذاهبة؟! . . لو تتماسك؛ تثبت على الأرض، والواقع! . . لو تكف الصور . . لو تذودها عنها! . . كالحيات تنهش من كل فج . . ما أقسى مرورها بالخاطر؛ تحرق نسيج القلب، تعتصر دمه . . ترى هل يضمهم بيتهم الجميل مرة ثانية؟! . . فتشرق حياتهم بالأمن من جديد . . وبالأمنيات؟!

ترى هل يضمهم شاطئ البحر فى المصيف؛ يحيون مرة أخرى أعماق حبهم لله وهم يتملون صنعته؟! وهم يحيون معا أفكارهم السامقة وعالمهم الرفيع؟! وهم يبنون معا البناء الجديد الجميل النسق فى الطريق إلى الله؛ وعلى رأس مسيرتهم الشقيق الحبيب؛ القدوة العملاقة تنير لهم وللمؤمنين الطريق . . تشرح لهم معالم الطريق؟! . . هل ينجيه الله هذه المرة أيضا من أيدى العدو فيعود إليهم . . ويعودون؟! . . ولكن قلبها

يرهص بالظلام الكثيف . . أفيتركه أئمة الكفر يعيش ؛ بعدما قال فيهم ما قال ؛ بعد أن أزاح الحجب وأعلن ما يخبئون من كيد . . بعد أن أطلق الشرارة التى لن تطمس ، والإشعاعة التى لن تغيب؟ !

يا ألله . . ما أشد لذع الصور ، وما أفدح ثقلها ! . . لو تقوم من جلستها هذه . . لو تجرى هاربة إلى الخارج . . لو يفتح الباب المقفول ! . . تطن حولها الصور ؛ تلتف حولها وتطوقها . . قلوبهم الجذلة هناك على الشاطئ وقد عادت إليهم الحياة ، وأشرق فى أعمارهم الربيع بعد خريف طويل وشتاء قارس . . الموج الهادر الدائب الحنون يطوى آلامهم ، وتستل الموجة الذاهبة الخوف من قلوبهم والقلق وشبح الفراق . .

بيتهم الجميل هناك ، مطل على البحر الزاخر ، نابض بالحياة . . وهى قطعة من حياة طافرة بالحياة ؛ عبء السنوات العجاف ينزاح من فوق كتفيها ويطلقها خفيفة رائقة . . هاهو الشقيق الحبيب الأب الرحيم معها ، لا تفصل بينها وبينه الأسوار ولا جند الطغاة ! . . طليقان بعد قيد طويل عات ولهفة واغلة ! . . ومعهما الأحباء كلهم . . باقة من ربيع والبحر الزاخر بالحياة يوصوص فى قلوبهم بالأمنيات ، والموجة الذاهبة إلى بعيد تستل من قلوبهم مخاوفهم وقلقهم ، وتطوى فى طياتها الساربة كل أشباح الغربة التى عاشوها والفرقة الحزينة ! . . يا للحسرة ! . . يا للموجة الخادعة . . لقد عاد الفراق أسرع من كل خيال . . أسرع من كل خوف وقرمرة فى قلب أو طاف بخيال ! . . أو حقا قد عاد الفراق؟ !

لم تكن تتصور ويدها فى يده ، بعد لهفة السنين الطوال ، ولقاء الدقائق المطاردة ووجه الرقيب الأثيم يدس أنفه فى ثنايا كل لحظة ، ينخر فى أعماق القلوب ، يفتش خلف الشوق اللاهف عن فكرة تهجس وراء

الحس، أو نظرة تهمس برفض! . . ها هما هناك، والشاطئ البديع يجهر بالحسن، يضمه القمر الحانى بالرضاء الواثق، وقلبه الحانى أوسع من الحياة، من البحر الممتد الزاخر وأخف من الفرحة الطافرة . . يهبهم إياه ويلفهم بفيوضه؛ يرعاهم بأبوة عميقة فقدوها منذ بعيد؛ يعطى يعطى ويعطى بلا شح، بلا ضيق، بلا من وبلا ملل، فيغمرها العطاء بالفيض، ويمتلئ قلبها بالغنى، بالحب، بفيض الرحمة، فتفيض منه على كل من حولها؛ . . أو قد عاد الفراق؟ . . وانتزع منهم الراعى مرة أخرى؛ وانتزعوا جميعا وتشتت شملهم أقسى من كل ما فات؛ وتبعثر الجميع كأن زلزالا هائلا ثار فى البيت الهانئ فمزقه إربا إربا! . . ثار حقد الكفر كالوحش الهائج فأنشب مخالبه فى القلب، وتبعثر الجميع، كل لا يدرى أين أخوه؛ كل يدهمه الهول، لا يفكر فى غير اللحظة الماثلة، فى غير الساعات الثقيلة الساحقة، تتلوها الساعات! . .

الصور عميقة غائرة، نافذة كالخنجر، مثيرة كريح الإعصار؛ ترج القلب رجا وتعتصره فى صدرها، تحسه يهوى، يهوى إلى مكان سحيق لا تدرى أغواره، تتفكك أوصالها ويغمرها خدر مؤلم كأنها تودع الوجود! . .

الذكرى تعود . . تغرقها رغم كل مقاومة . . تلتف حولها كالسلاسل؛ تنتزع قلبها انتزاعا رغم قواها الهابطة، رغم عضلاتها التى تئن، تعضها قسوة الفراش، وضراوة الأسفلت الرطب تحت الفراش الرقيق، وقسوة الهواء الثقيل الذى ينصب من الطاقة فوقها ساخنا باردا فى آن . . رغم الهول المحيط ووجه الحياة الغامض المفزع يتراءى ممحو الملامح يلفحه اللهب ويحمشه الحريق . . تلك الذكرى البعيدة فى أغوار الزمن، تبدو فى ذهنها المرهق واغلة القدم . . أفكانت حقا قبل أيام قصار؟!

ها هى . . أمام عينيها كأنها آتية من زمان الحلم . . من أسطورة بعيدة حكتها لها أمها وهى بعد فى براعم الزهر . . الربوة الصغيرة وسط المياه ؛ المياه اللا متناهية لا يحدها البصر ؛ والقمر يسكب فوقها من روحه العذب وهم واقفون كلهم معا ، تنسرب أرواحهم فى الجمال المبدع وفى قدرة الله القادرة ، فى العبادة الصامتة الثرية تنفذ حتى الأعماق البعيدة لبديع السماوات والأرض ؛ والحب يتسرب فى الحنايا وتتشربه كل ذرة فيتدفق من كل غور لله ولكونه ، لخلقه ، لدينه ، لهم هم ، الأسرة المترابطة المتحابة فى الله فوق قرابة الدم ؛ كالجسد الواحد ، المنبثق من قدرته ، الملتقى على دينه ، السائر إليه فى طريقه المستقيم ، المرتمى فى كنفه الرحيم . .

الوجوه والأجسام ، الملامح المنبسطة مع الكون شاخصة أمام عينيها اللحظة . . الشقيقان الحبيبان . . وجها هما محفوران أمامها هنا ؛ فى كل شىء يتراءيان ، فى القلب ، فى الناظرين ، فى أعماقها البعيدة وفى لهفتها المفزعة . . هل يعودان . . كلاهما . . وتعود الحياة ، ويعود إليها وجهها النضر وقلبها المشرق . . والأمنيات؟!

وغروب الشمس على «اللسان» . . وقد كان قصة طافرة بالمرح فى أيامهم القصيرة . . ها هى تسرع الخطى ، . تعبر الطريق بجوار البحر الهادر ، والجمال يمد ذراعيه يحتضن القلوب ، يغرق البصر ، وهى ترشف منه ملء روحها المتشوق للحياة وللجمال فى صنع الله . . ثم تستغرق فى الهدف المحبب : الشمس الغاربة ، تلحقها وهى تسقط خلف المياه! ترقبها من الربوة العالية ، من «اللسان» الموغل فى الماء ، حيث يلتقى البحران ؛ حيث آيات الله المبدعات . .

والشقيق الحبيب ، وجهه المبتسم المتهلل بالحب ، بالسعادة ، والفرحة

بهم، لأنهم يحيون مشرقى القلوب بعد ليل طويل، يسرع الخطو معها فتسبقه، ويلاحقها بنكاته الحلوة الطافرة بالحنان . .

وعلى الربوة هناك يكتب؛ يكتب أفكاره السامقة . . يقرأ لهم ما كتب؛ يشرح لهم، يأخذ بأيديهم إلى الربا العالية، يعد قلوبهم وعقولهم للدور العظيم!

يعتصر قلبها نواح مكتوم . . تصرخ . . تصرخ تصرخ . . لا صوت . . الفم المغلق يرد الصرخة؛ ترتطم بالأعماق السحيقة وتبتلعها الظلمة . . من . . من ينقذها؟! . . من يرد عنها سلاسل الذكرى . . الصور . . تتلوى حولها وتطوقها؛ تقبض على قلبها بثقلها المروع . . كالأفاعى . . كالحيات تنهش وتسكب السم .

انتفضت فى رعدة مفاجئة على صوت ضوضاء عند الباب؛ تعالت دقات قلبها ثم أبطأت حتى تهاوت . . يا للنقلة! . . إنها هنا؛ فى الزنزانة المغلقة الملفعة بالظلام . . أين كانت؟! . . تطلعت ببصرها المفزع ناحية الباب تتقصى مصدر الضوضاء . . لاشىء جديد . . الباب مغلق إغلاقة الموت ككل وقت! . . ولكن الصوت كان حقيقة، سمعت شيئا خشخش فى أعلى الباب ثم ارتطم بالأرض! . . سرت فى جسمها قشعريرة، وهمت واقفة، ثم تحركت قدماها بحذر فى اتجاه الباب . . فى الطريق أحست أن قدمها ترتطم بشىء لين فارتعدت، وانطلقت من فمها صرخة مكتومة؛ رفعت قدمها بسرعة وحدقت فى الأرض بكل عينيها؛ قد يكون ثعبانا قذف بنفسه من فوق الباب، مطمئنا إلى الظلمة الكاسية فى المكان؛ وفى هذا المبنى المدفون فى الصحراء تكثر الثعابين؛ وفى حر أغسطس اللافح تسعى إلى كل مكان!

ماذا تفعل؟! وحدها تعيش وسط غرباء جفاة، حشيت قلوبهم بالعداء

الثقيل! . . لا مفر من قدر من الجرأة تواجه به قدرها، لابد لها من أن تتخلص من الخوف وهى هنا، حتى لو كان ذلك من صفاتها الحميمة! فهناك، فى البيت الآمن لم تكن بحاجة إلى شجاعتها فى مثل هذه المداهمات الصغيرة، وكان الحماة حولها فى كل آن! . .

أمسكت أنفاسها وجمعت شجاعتها . . خلعت حذاءها، واندفعت تضرب بكل قوتها هذا الشىء الرطب المستلقى على الأرض فى الظلام . . يا ألله . . وندت من فمها ضحكة بغير إرادة؛ أول ضحكة منذ غادرت بيتها قبل أيام . . إنه رغيف!! . . رغيف وجبة العشاء، قذفه إليها الحارس من فوق الباب المغلق فوقع على الأرض!

غاضت الضحكة وغص بها قلبها، وطفرت إلى عينيها دمعتان كبيرتان وقفتا حائرتين . . لكم هانت فى هذا المكان الكئيب اللئيم، ولكم ديست كرامتها من هؤلاء اللئام! . . يا لهؤلاء الجهال، فما تعامل هكذا حتى الكلاب! . .

غامت الدنيا فى قلبها وغرقت فى انقباضة سوداء تغلق فى روحها مسارب النور ومنابع الرجاء؛ وتوغلت فى حناياها رغبة للبكاء . . البكاء الصامت المتغلغل حتى الأعماق . . تركت الرغيف فى مكانه على الأرض وعادت بخطوات بطيئة يائسة إلى الفراش؛ وألقت إليه بجسمها كله وغمرت وجهها فى الغطاء! . . إلى متى ستظل تتأفف من قذارة الفراش؟! . . وفى صمت شامل انساحت من عينيها الدموع كأنها الوابل المختزن . . إنهم . . إنهم مهزومون!!

* * *

استلها من عتمة قلبها المغرقة صرير الباب يفتح بعد هنيهة، يظهر

الحارس فى فتحته التى يبرزها الضوء الآتى من الفناء؛ كان يأذن لها بالخروج الدورى إلى دورة المياه!

قامت متثاقلة تجر جسمها جرا؛ لا تجد فى نفسها ذرة واحدة تهش لهذا الخروج الذى تنتظره كل مساء . .

الضوء فى الخارج يصدم عينيها فتنغلق أجفانهما على الرغم منها ثم تفتحان فى حركة كليلة . . النور الآتى من المصابيح الكثيرة المتناثرة فى الفناء يغمر المكان ويفصح عن ذوات الأشياء فى الفضاء الفسيح . . وصفحة السماء تبدو رائقة رخية وقد افترشها القمر بدرا . . والزرع النابت هنا وهناك فى أحواض متباعدة تتمايل أعطافه فى طمأنينة وثقة؛ حتى هذه النبتة الرفيعة البالغة الضعف تشق طريقها الشاق بين صخرتين فى يقين ودعة! . . تمنت لو تقف هنيهة تتملاها . . سبحان مالك الملك! . . من أعماقها تصعد آهة لا تستطيع ردها! . . قوية هى تلك النبتة على ضعفها! تعلم علم اليقين أنها سوف تغلب بالقدرة القادرة كل عقبات الطريق؛ ولا تساورها الشكوك فى النصر! . . تعرف أنها نبتة للحياة، وأن يد القدرة القادرة قد أودعتها رصيدها للنماء حين وصلتها بالكلمة؛ حين سبقتها . . «ك ن» فقدر لها أن تكون!

حين عادت من رحلتها الصغيرة بعد الوضوء كانت خلقا آخر، خفيفا نظيفا؛ خطوها يسبقها إلى مستظلها؛ ثقلة الطين تتساقط وتتشقق صلادته المعتمة، ومن الأعماق البعيدة تتفتح البذرة وينسل العود الأخضر الرفيع يشق الطريق صاعدا، يفتت سلاسل الطين والصخر، يشرئب بأطراف روحه إلى النور الآتى من بعيد، يسمق شجرة وارفة، وفى ظلال الشجرة الباسقة تستظل، تستروح الروح معنى الحياة . . شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . .

٢

التحقيق

لم تعد تعرف على وجه اليقين كم ليلة انقضت منذ جيء بها إلى هذا التيه المريب . . ليلة واحدة من تلك الليلات بسمتها الرهيب تتصدر صفحة هذا التيه؛ تلح بهولها ، وتنشر صورها خلال اللحظات المبعثرة ، وتتركز برعبها القاتل أمام ناظريها فتدمى قلبها المثقل؛ إنها الليلة الأولى؛ ليلة جيء بها إلى هذا المكان العجيب ، العجيب في كل شيء ، كأنما هو خارج حدود العالم المطروق ، كأنما هو وراء عالم الحياة ، فليس عجيبا أن يقول عنه الناس قولتهم المشهورة : «وراء الشمس»!

ولكنها الليلة أشد فزعا من كل تلك الليلات . . صور الليلة الأولى بكل هولها ، وعشرات من الصور الرعيبة التى أفزعت أيامها ولياليها هنا تحيط بها كالأشباح السود؛ تطوقها وتطبق على روحها حتى تكاد تنطلق صارخة إلى الخارج؛ فيصد قلبها الباب الطويل الواقف كحارس أسود وحشي السمات فترتد إلى مكانها الموحش الذى لم تغادره؛ وتغمر وجهها بيديها هاربة فتلاحقها الأشباح تنفذ إليها من وراء كل غطاء .

كانت كلمات الطبيب الذى مر عليها هذا الصباح ، على بساطتها ، هائلة مثيرة ، فتحت فى قلبها آفاقا من الفزع ومن الهول لم تكن

تتوقعها . . فحتى هذا الصباح لم تكن تعرف لماذا هى هنا؛ ولم تكن تتصور إلا أنها ساعات أو أيام قلائل تقضيها فى هذا العذاب، على الجمر فى انتظار مخرج يأتيها من عند الله فى أية لحظة فى الليل أو فى النهار؛ ولم تكن تدرى شيئا مما يعده لها الزبانية على رغم معرفتها بحقدهم وفجورهم . . .

لقد نبشت فى ماضيها كله الذى وعته قبل تلك الليلة المشئومة، حين انتزعها هؤلاء الفجرة من أمن بيتها وصونه إلى هذا الجحيم؛ تفتش فى ثنايا أعمالها وأقوالها عن شىء يدفع الطغاة لارتكاب تلك الفعلة الشائنة التى لم يسبق لها مثيل فى هذا البلد المنكوب بهم . . «السجن الحربى»! . . ذلك الاسم الرهيب الذى تفزع القلوب عند ذكره؛ يؤتى إليه بالفتيات الصغيرات والنساء؟! يلقى بهن وسط الجند، البدائيين؛ المجردين من كل خلق، المسلطين بوحشية مفرطة على المؤمنين! . . هنا فى هذا المكان الموحش الرعيب الذى يلفه الغموض المريب، ويغمره الهول، توضع المسلمات؛ تتلقفهن وجوه الجند الوقحة وأيديهم الآثمة الملوحة بالسياط ليل نهار؛ هنا تعيش صاحبات الخدور والصون والعفاف؛ فى الزنازين المستباحة، يحيط بها من كل مكان رجال لا دين لهم كالوحوش الجائعة؛ يفتحون عليهن أبوابها كلما شاءوا فلا يمكن ردهم؛ يتلصصون عليهن من فتحاتها فلا يمكن الفكاك من نظراتهم؛ يقذفون كل لحظة إلى أسماعهن بفاحش القول فلا يستطعن صد ذلك السيل عن آذانهن . . كيف جن الطغاة؟ كيف ساقهم حقدهم إلى ارتكاب هذه الفعلة الشنعاء؟ أم إنه الكفر الفاجر لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة!

ولكن كلمات الطبيب فى هذا الصباح الرهيب تحيط بها وتنتزعها من كل خاطرة عداها . . «إنهم سيحققون معها . . هى هنا رهن التحقيق . . »

ياللهول! . . فلسوف تستدعى إلى مكاتب العذاب؛ ولسوف تدخل فى مجازر تلك المكاتب. . ولسوف تبقى فى هذا المكان الرهيب. . ثم. . ففيم يحققون؟!

لا تدرى كيف مرت تلك الساعات المفزعة منذ ذلك الصباح! لا تذكر أن ساعات مما انطوى من عمرها قبل ذاك تماثل تلك الساعات فى هولها؛ لا تملك، حتى وهى تعيشها لحظة لحظة أن تستوعبها؛ ولا تستطيع، حتى لنفسها أن تصفها!

لقد وقعت كلمات الطبيب على قلبها كالصاعقة. . كانت تحتج إليه على وجودها فى هذا المكان؛ فلقد ظنت أنها وجدت أخيرا إنسانا وسط أدغال الوحوش، تفضى إليه بفزعها وعذاباتها وحرجها القاتل الذى تعيشه وسط الجند. . ولكن كلماته فاجأتها، ثقيلة ساحقة؛ وصك قلبها الجفاف البادى فى نبرتها؛ وسحقت روحها ضحالة الآدمية التى تغلفها وهو يقول لها: «إننا لا نملك أن نصنع لك شيئا. . أنت هنا رهن التحقيق. . ولابد أن تبقى هنا حتى تثبت براءتك!». . كيف لو جاءوا بابنته إلى هذا المكان؟! هذا الذى فقد أى معنى للرجولة فى أعماقه! كيف ومتى سحقت كل القيم، كل إنسانية الإنسان فى هذا البلد المنكوب!

لم تستطع أن تجيب؛ أمسكت المفاجأة قواها فظلت تحدق بعينين لا تعيان شيئا فى وجه الطبيب دون أن تنبس بكلمة. . وخرج . . وأغلق خلفه الباب!

بقيت واقفة فى موضعها. . واقف فيها كل شىء، كأنها لم تع شيئا مما قال؛ كأن ما قاله لا يعنيها هى؛ ومرت اللحظات ثقيلة صامتة فارغة. . كل الأصوات التى تصخب خارج الزنزانة؛ كل النداءات وكل السباب، كل لذعات السياط وكل الآهات والأنات التى طالما أرقت سمعها،

ولذعت قلبها فى الليل والنهار؛ ترتد عنها هذه اللحظات كأنما ترتطم بتمثال أصم؛ ليس فى قلبها مكان بعد لآلام الآخرين. . الآخرين؟!. . نعم. . حتى أشقاؤها الذين ما فتئت تتعذب من أجلهم منذ انتزعهم الوحوش من بيتهم الآمن قبلها بأيام قلائل. . فهم رجال. . كلا، ما عاد مكان، فقد ابتلع الهول الجديد كل مكان. . إنها. . يا لفداحة الكلمات. . إنها هنا رهن التحقيق! ولسوف تساق فى ليلة بهيمة إلى مجازر التحقيق!!

انطوت ساعات منذ الصباح لا تكاد تتحرك من جلستها. . الصور البشعة يتراءى طرفها ثم ما يلبث أن يغيب، الأحداث تبهت وتتداخل وتهرب. . الأصداء ترتد عنها دون تفسير، الأصوات فى الخارج ليس لها مدلول كأنها أصوات عجماء!. . الماضى. . الحاضر. . المستقبل القريب. . والهول المرتقب، تختلط سماته؛ تتقطع أجزاؤه وتثب إلى فكرها. . إلى قلبها وخيالها الشاحب دون ترتيب، دون تسلسل ودون أدنى ارتباط، كأنما داستها عجلة ثقيلة هائلة فتركتها مزقا مبعثرة كالفتات!

ثم دخل الليل. . كان ضوء النهار رحيما بها رغم كل شىء؛ لم يتركها وحدها فى ظلمة الهول الجديد؛ كان يصد عنها الصور الوحشية السوداء التى تفزع روحها وتنهش قلبها المفرد وسط أدغال الهول؛ هذا القلب المسكين الذى تعود لين العيش، وأحاطت به نداوة الود وحرارة الحب الرقيق من كل جانب. . أتراه يطيق. . يحتمل. . يقاسى أول مرة فى عيشه هذا الامتحان العسير بلا معين! أتراه يقوى على ابتلاع هذا الهول القارس بلا حدود. . ولكن ضوء النهار الحانى قد تركها هو الآخر، وأسلمها لظلمة الليل ووحشته، وحيدة مفردة، مفزعة بين أنياب الظلمات!

حاولت أن تنام . . وهل يمكن أن تنام؟! . . والصور المفترسة التى بعثرها من حولها ضوء النهار وحركة الحياة الصاخبة خارج الزنزانة، تتجمع وتتكاثف وتنشب أظافرها فى قلبها المروع . . كل ما قرأت، كل ما سمعت، كل ما عرفت من اعتداءات الوحوش، على الأنفس، على الأجساد والأعراض؛ يطبق على روحها، تحسه فى حلقها، يطوق رقبتها كحبل من حديد!

كل شىء هنا أوغر صدره قسوة وحقدا؛ حتى الأرض! . . ما أقساها هى الأخرى . . صلابتها الوحشية تحت جسمها الموجع . . لا ترحم قلبها المعذب بهول الموقف؛ تغوص نتوءاتها فى اللحم والعظام وفى كل جزء؛ لم يعد فى جسمها موضع لم يقس عليه الألم، كل لحظة بألم جديد!

حين جىء بها إلى هذه الزنزانة وإلى هذه الخرقة البالية فوق أرضها الصخرية، لم تتصور أنها ستنام عليها حتى ليلة واحدة! لقد ظلت ليلتها حينذاك واقفة حتى كلت قدماها فأرغمتاها على الجلوس؛ نعم! . . جلست على طرف هذا الفراش الرث؛ وحين غلبها النوم قرب الصباح، وضعت رأسها على ركبتيها وأغفت قليلا فى انتظار الصباح! . . كانت تظنها ليلة واحدة تقضيها كما تكون، فلابد أنها سوف تعاد إلى بيتها فى الصباح! . . وهل يمكن أن تبقى فى مثل هذا المكان أكثر من ذلك! وهل جن هؤلاء المجرمون حتى يرتكبوا هذه الفعلة الفاحشة التى لم يرتكبها قبلهم أحد؛ مهما فحشوا وحقدوا وطغوا، فإنهم لا يجترئون على أن يبقوا النساء فى هذا المكان الفاحش وسط الجند الأجلاف فى ثكنة عسكرية مغلقة . . ثم أى مستوى من مستويات النساء! نساء البيوتات المسلمة المصونة القدر فى هذا البلد الطيب! . . لا . . يستحيل ذلك عليهم؛ فتقاليد البلد؛ مهما خطا الناس بعيدا عن دينهم وأوغلوا فى

الفساد، لن تسمح لهم أن يتخطوا الحدود إلى هذا الحد الفاضح! . . لابد أنهم سوف يسألونها ما يريدون، ثم يعيدونها إلى بيتها فى الصباح!!

ثم . . ثم مرت الأيام والليلات؛ وألجأها اضطرارها للنوم أن تفترش هذه الخرقة الرثة تلطخها الأقذار وآثار الصديد والدماء التى نزفتها من قبل الجراح مرات بعد مرات. . .

والليلة . . الليلة لن تستطيع أن تنام . . الليلة تحس بقسوة الأرض أضعافا مضاعفة؛ صنعها الشياطين من مادة غريبة غير التى خبرت من قبل؛ تضاعف رطوبتها المبرحة وصلادتها؛ أشق من كل ليلة مضت تحس آلامها، لا تتركها قادرة على تحمل ألم جديد. . فلتجلس إذن، ولتسند ظهرها إلى الحائط الرطب الذى ينضح ماء، لا مفر؛ ولتضغط على آلام جسدها الذى يئن فى كل ذرة، فما أهون آلام الجسد؛ ولتتفرغ لهذا الهول الجديد!

لسوف يحققون معها! هذا ما قاله الطبيب هذا الصباح . . هل يمكن أن يكون صادقا؟! . . ولكن ما الذى يدفع الرجل لأن يلقى إليها بكذبة قاتلة كهذه؟ وهو الذى يعرف ما هو التحقيق ويعرف ما يدور هناك؛ ويعرف وقع خبر كهذا على صحتها وهو الطبيب المسئول! . . كلا، لابد أن يكون ذلك هو ما ينتويه لها هؤلاء المجرمون . . ياالهول هذا الذى لم تعد نفسها له فى يوم من الأيام!

وهل نسيت أهوال التحقيق التى شهدتها أول ليلة جاءت؛ وهل يمكن أن تنسى تلك الليلة الرهيبة؟! كل لحظاتها، كل هولها وكل بشاعاتها؟ . . لقد حفرت فى قلبها وأعصابها أخاديد لا تطمسها قوافل الأيام والسنين، ولا تحيل ملامحها أكداس الذكريات . .

هل تنسى تلك الساعات المفزعة وهى فى العربة التى تنقلها من دار

المباحث العامة إلى حيث لا تدرى؛ حين أنبأها الضابط الوقح الذى كان يصطحبها فى تلك العربة أنها ذاهبة إلى السجن الحربى؟! . . لقد وقعت الكلمة عليها حينذاك وقع الصاعقة؛ فهى لم تتوقع، بل لم يتوقع أحد قط، أن يرتكب الأشقياء ما لم يرتكبه المستعمرون طوال استعمارهم البغيض! . . لقد دق قلبها دقات عالية صعدت إلى حلقها وكادت تخرج من فمها! . . لقد أوشكت فى تلك اللحظات أن تفقد تماسكها؛ وخافت أن يفلت منها ظاهرها الهادئ الساخر الذى احتفظت به طوال الساعات، منذ أخذت من بيتها فى الضاحية الهادئة بيد العسكر شاهرى السلاح؛ هذا الهدوء الذى ظل صامدا وهم يتلاعبون بأعصابها فى دار المباحث، ينقلونها من غرفة إلى غرفة، ومن مكتب إلى مكتب؛ تواجهها الوجوه الفاجرة الملامح كأنها قدت من كفر لئيم؛ تسألها فى صلف أو تسخر بها فى حقد رخيص. . لا تنسى ذلك الجفاف المر الذى انداح فى فمها وحلقها فلم تستطع أن ترد بكلمة واحدة على استفزازات ذلك المخلوق الشائه القلب وهو يحاول إثارتها كل لحظة بكلمات بذيئة ساقطة! . .

كان اسم هذا السجن أسطورة رهيبة مفزعة فى أعماق ذلك الجيل؛ الجيل الذى طويت طفولته البريئة فى أهوال المعركة الأولى بين هذا الشقى وبين المؤمنين. . لم تره، لم تعرف حتى موقعه على خريطة العاصمة؛ ولكنها سمعت عنه الكثير، واندس فى حنايا قلبها البعيدة من أساطير فظائعه وأهواله ما لم يخطر على تصورها أن يوجد فى عالم البشر؛ وما لم تقرأه فى تاريخ عصور الظلمات فى أوروبا! . . عرفت كيف عذب فيه المؤمنون؛ حتى مات منهم من مات، وفقد عقله منهم من فقد. . كيف جلدوا بالسياط حتى تطاير منهم الجلد واللحم؛ كيف كووا بالنار حتى تآكلت ظهورهم؛ كيف فقئت عيونهم بالأسياخ المحماة وكيف حطمت رءوسهم بأطواق الحديد! . . عرفت كيف نفخوا بالمنافيخ حتى تفجرت

أمعاؤهم؛ وكيف علقوا من السقوف تدور أجسادهم وتحتهم النيران تشوى الجلود واللحم وتنفذ حتى العظام! . . عرفت كيف تداس هناك الحرمات؛ كل الحرمات! كيف تمزق الكرامات وكيف تعذب بمئات الطرق الأجساد والأرواح! . . عرفت كيف مزق كتاب الله، أقدس الحرمات، وديس بالأقدام أمام أعين المسلمين . . يا ألله . . أإلى هذا المكان الفاحش المروع يذهب بالنساء!

لم يكن فى طوقها حينذاك أن تصدق! . . ظنت وقتها أن ذلك الضابط القذر يحاول إرهابها بهذا الخبر المفزع الواغل هوله فى أعصاب هذا الجيل، لعلها تنهار أمامهم من أول لحظة، فيحطم بذلك استعلاء قلبها الذى لم يستجب، والذى أغاظه واستثار كل دناءاته . . .

لكن العربة كانت تنهب الأرض نهبا إلى أرض الجحيم . . فى قفر الطريق الموحش المنقطع عن العمران وفى جوف الليل وبين صفوف المقابر الطويلة، دلفت السيارة تقطع الطريق إلى المقبرة الكبرى . . هى بداخلها تحيطها ثلاثة وجوه ممسوخة، يرتسم فى ملامحها الجافة العقيمة غضب الله . . تروح مشاعرها وتجىء، تذرع الطريق بين قاع الفزع السحيق وقمة الرضاء والثقة فى الله . . بين الهلع المدمر من آت رهيب جاثم بعد لحظات، وبين سخرية هازئة بالزبانية الذين جنوا فأعلنوا حربهم جهارا على الله! وانطلقوا كالكلاب المسعورة تنهش لحوم حاملى رايته . . حتى النساء!

كانت ملامح الرجال الثلاثة تثير فى قلبها الاشمئزاز، وتملأ روحها بالاستهانة بالطغاة والطغيان رغم الهول الذى تدفع إليه، وتنهب العربة الطريق إليه فى سرعة مجنونة؛ وعلى وجهها ترتسم ابتسامة هادئة ساخرة تثير نزق الضابط المخنث القسمات فيلح فى اللجاج! ! . . لماذا تستعيد

ذكرى ملامح تلك الليلة الرهيبة؟! ألا يكفيها ما هى فيه الآن من هول؟! . .

الصور تلح على الأعصاب يدفعها الهول المرتقب، يسرد شريط الهول منذ تراءى فى الأفق القريب . . فهنا، ووسط هذا القفر الموحش فى وحشة الليل وقفت العربة أمام باب أسود هائل رهيب السمت . . لحظات قصيرة ثم ما لبث أن انفتح ذلك الباب ودلفت منه العربة إلى الداخل، وصك أذنيها قرقعة السلاح حين حيا الحارس ذلك الضابط داخل العربة!

انتزع الفزع من قلبها كل شعور آخر، وبقى وحده يهز مشاعرها هزا حتى ليكاد جسمها يرتعش فتضغط عليه بكل قواها حتى لا تفقد تماسكها . . كان صوت قرقعة السلاح، ولم تعتدها أبدا فى عيش الناس الطبيعى، كفيلا بأن يشى لقلبها بالهول المرتقب وينبئها إلى أى عالم تساق .

لحظات قليلة، وقفت بعدها العربة فى ممر ضيق بين مبنيين قديمين كئيبى السحنة؛ ثم فتح باب العربة وأمرت بالهبوط! . . كل شىء فى المكان مفزع رهيب مخيف! . . المبانى المظلمة الموحشة الكئيبة؛ مستطيلة كهيئة السراديب؛ الوجوه المتناهية فى القبح مبعثرة فى المكان فى كل فج، الجنود يحملون السلاح ينتشرون هنا وهناك كأننا فى ساحة حرب! والصمت ووحشة الليل! . . أشد هولا من ذلك كله كان الصراخ المفزع الذى ينطلق متواصلا من حنايا قريبة مجهولة فى المكان الموحش الذى يلفه الليل بصمته وغموضه! . .

أوقفها الزبانية بجوار جدار قديم قذر، وفى الضوء الخافت الآتى من مصباح بعيد رأت أحد المعذبين، واقفا بجوار الحائط المقابل، وفى غفلة من الرقباء وقعت نظراتها الزائغة على وجهه . . يا للهول . . يا لدناءة

الزبانية! . . كان وجهه مسخا شائها؛ لقد فعلت به الأفاعيل الوحشية الدنيئة التى سمعت عنها من قبل فى أساطير الرعب! كان جانب من وجهه منتوف اللحية تنبثق الدماء من كل جزء فيه؛ وترى حتى فى الضوء الخافت، أخاديده وبؤره، بينما أبقى النصف الآخر للسخرية والمثلة! وكذلك فعل الأشقياء بحاجبين فوق عينيه المتورمتين! . . أما رأسه فكان عاريا حتى من شعرات. . كان كجمجمة الموتى! . . كان صامتا؛ لا يتأوه؛ لا يتحرك، لا يلتفت، كأنما رصد فى هذا الوضع وقد فارقته الحياة! . .

مرت اللحظات، بل الساعات وهى فى وقفتها تلك؛ هل تنساها؟! هل تستطيع أن تنساها حتى لو حاولت ذلك، تلك الساعات التى تعدل الزمان كله؛ كانت أرهب ساعات عرفتها منذ وعت حياتها؛ تخللت لحظاتها السود كيانها كله؛ وأقامت فاصلا مظلما ثقيلا بينها وبين كل ما كان لها من قبل من حياة! كأنما ولدت فى هذا الهول ووعى فيه قلبها الوجود. .

لم يكفّ الصراخ القاسى المستغيث يصك أذنيها المذهولتين، وقلبها المفزوع المروع؛ ولم يكف وقع السياط يهوى باستمرار! وصوت العصى الغليظة تهوى تلذع بغير رحمة كأنها تنهال من يد عملاق! يتناهى إليها ذلك من جهات عدة مع أصوات الكلاب الوحشية المسلطة يتبعها صوت منزعج مفزع مستغيث تشيب من هوله القلوب! تتداخل فيه أصوات الزبانية يزعقون ويتضاحكون ويسبون! . .

حركة دائمة لا تنقطع فى هذا القفر الموحش المنقطع عن الأحياء. . مجزرة بشعة لا يراها أحد ولا يسمع بها أحد ولا يهتم بها

أحد! . . حتى هم . . حتى هى قبل ساعات قليلة لم يكن هذا الهول الناشب يشكل شيئا من عالمها! . . كانت تحيا بين الأحياء، تأكل وتشرب، وتأمل وتألم لتافه أمر العيش؛ وتعيش كما يعيش الأحياء، لا تشعر بما يدور، وما يقاسيه بشر، مسلمون أو حتى كافرون. . لكنهم بشر. . فى عرصات هذا الجحيم! . . قلبها يتمزق خجلا وحزنا؛ كل صرخة تنفذ فيه كالخنجر المسموم. . لذع روحها حتى أعماقه هذا الهوان للإنسان، وهذا الذل المفجع الذى تراه. . هالها أن يصرخ الرجال الأشداء، أن يستغيثوا كالطفل الذى هاجمته الأشباح؛ هالها ذلك التوسل يمزق الروح، للزبانية أن يكفوا؛ وهالتها حتى القرار وحشية تلك القلوب! . . أحست أن كيانها كله يميد وتتزلزل فيه الموازين! . . كيف يظل هؤلاء الوحوش يعيشون بين البشر؟! كيف يظل المجرمون الكبار فى صولة العز والمنعة؟! . . هل يدع الله المؤمنين لهذا العذاب. . لهذا الهوان. . وهم مؤمنون؟!

كانت، فى ذلك المشهد المروع، الصرخات المزلزلة تتوالى، وأصوات العذاب تنتزعها خارج كل فكرة وكل شعور، ليس ثمة لحظة تتبادل فيها مع قلبها الحديث؛ تناقش فيها مشاعرها التى تميد فى أعماقها وتزلزل فيها الموازين؛ ليس ثمة لحظة تلجأ فيها إلى الله! . . .

انطوى الوقت رغم كل الهول؛ لا تدرى كيف انطوى، وهل يمكن ألا تنطوى اللحظات وقد شاءت رحمة الله أن تنطوى؟! وهل يمكن ألا يمر الزمان مهما استمر الهول واستفحل بطش المجرمين، وقد اقتضت رحمة الله أن يمر؟! . . شعور قاتل كان يجثم على قلبها تلك الساعات بأن الزمن قد توقف؛ كفت عجلته عن المسير! وأن ذلك العذاب الساحق أبدى لا يزول ولا يتحول! . . كيف سيكون هول اليوم الذى سوف يجىء

لا محالة؛ حين تقتضى رحمة الله، ويقتضى عدله أن يتوقف الزمن ويستعر الهول حول المجرمين.. كيف لا يفكر الزبانية، كبارهم والصغار!!.. أم إنهم فقدوا منه ثقتهم؛ واجتثت معالم الإيمان بالغيب من أعماقهم؟!

قدماها لم تعودا تقويان على حملها فى تلك الوقفة الرعيبة كأنها الأبد! وجسدها تحس به ثقيلا فادح الثقل كأنما ازداد وزنه أضعافا مضاعفة؛ كأنما ضغطته من فوقه يد ثقيلة ساحقة الثقل فأخذ يهوى فوق ساقيها المنهكتين.. تمنت لو تجلس على الأرض؛ فقد تحتمل حين تنصب فوقها لذعات الأنين الدامى وهول الصرخات؛ وأحست أنها تفقد الزمام؛ تكاد تهوى ساقطة على الأرض؛ تكاد تنفجر فى نحيب مرير لا يعصمها منه غير عزة بالله، وبدينها الذى جاءت من أجله إلى غابة الفجور!

فجأة، توقفت الصرخات الآتية من أقرب الجهات إليها؛ وعلت أصوات الزبانية وتشعب لغطهم، ثم انطلقت قهقهاتهم عالية فاجرة.. «لقد مات».. «كلا إنه يتماوت».. «هات السوط».. «اعطه خمسين أخرى حتى يفيق».. وتنطلق الضحكات وينهال سيل من السباب البذىء، وسيل من السياط.. ولكن.. لا صوت هناك؛ لا استغاثة ولا صرخات.. أو قد مات؟!.. ويجتاح الفزع قلبها كأنه إعصار.. وينطلق من فمها صرخة مكتومة دون وعى وتنهمر من عينيها الدموع، ويغشى روحها الذهول.. كل ما سمعته، كل ما عرفته وكل ما فزعت له نفسها من قبل عن هذا المكان الرهيب كان كلمات باردة؛ كان صورا بلا حياة؛ كان لا شىء إذا قيس بهذا الهول الساحق!

كف هوىٌّ السوط، ثم كف هوى الهراوات الذى ينهال فى قوة عاتية

كأنما ينهار على جدار! وانطلق صوت أجش النبرات: «اطلبوا العيادة.. استدعوا الطبيب.. لقد مات!!».. ويجيب صوت فاجر باستهانة لاهية: «لا يهم.. سيدفن هنا مع غيره من الكلاب!».. «الطبيب ليس هنا».. «لا يهم.. احملوه إلى (الشفخانة) حتى يأتى الطبيب».. ويأتيها صوت احتكاك الأقدام الثقيلة بالأرض الجافة آتيا نحوها لتحمل الفريسة على نقالة خشبية إلى حيث لا تدرى هى.. وتنطلق الضحكات والشتائم البذيئة.. ويخترق أذنيها صوت: «كلا، لا أستطيع.. إنه مهشم كله.. احضروا لى حبلا أربطه به.. لا يوجد مكان فيه أحمله منه ليوضع على النقالة!».. قواها تخور؛ وفى عينيها جفت كل قطرة دمع، وفى روحها تجف منابع الحياة!..

تلفتت خلسة إلى جانبها فرأته.. ياللهول الذى يمزق الأعماق.. إنه كومة مهشمة تسيل منها الدماء من كل مكان!

صك أذنيها صوت لا رحمة فيه ينهرها: «وجهك إلى الأمام، لا تلتفتى».. ويرتجف قلبها فزعا ويخترق روحها شعور بالهوان؛ فما مر بخاطرها من قبل قط أنها تكون يوما فى مثل هذا الهوان!.. كانت كلمات الجهاد فى فمها وفى قلبها خالصة نقية، لكن الصورة.. ما أبعد الصورة التى كان يحملها خيالها للجهاد عن هذا الذى تراه الآن!.. وما شأن هذا الذى يدور هنا بأمر الجهاد؟! وهل يسحق الجهاد إنسانية الإنسان وكرامة الإنسان؟! وهل تستطيع أن تفعل مثل هذا أعتى عصابات الإجرام؟!

خفتت الأصوات القريبة بجانبها.. لقد نقلوه.. تلك الفريسة المهشمة التى لا يجد الوحوش فيها مكانا يحملونها منه.. ولم تعد تدرى عنها شيئا بعدذاك.. تاهت، وتاهت ذكراها فى الهول المحدق كل لحظة،

وفى الغموض الرهيب الذى يلقى بظله الأسود فوق كل شبر فى هذا المكان الموغل فى الجريمة!

فى تلك الليلة المريرة، ظلت واقفة مكانها بعد الهول الساحق الذى استقبلت به حياتها فى هذا الجحيم؛ أذناها اغترفتا حتى فاض منهما صوت العذاب وأنين المعذبين وصرخاتهم واستغاثاتهم تترامى إليهما من بعيد؛ ولكن قلبها المفزع كان قد همد وهمدت فيه ثورة الإنسان؛ أصابه ما يشبه الشلل؛ خدر بليد واستسلام حزين!

صرخة هائلة ترامت إليها انتزعت قلبها انتزاعا من خدره؛ كانت صرخة سيدة! . . انتفضت انتفاضة مذعورة وانطلقت من فمها صرخة مروعة: «شقيقتى . . . إنها هى . . صوتها!» . . جاءها الحارس مسرعا يسألها ما بها فى تهديد ووعيد وسب . . ولم تستطع أن تجيب غير كلمات متقطعة تكاد تطفر منها الدموع: «أختى . . جاءوا بها قبل قليل» . . أجابها صوت خشن فاجر كأنما جلب اللحظة من أعماق الجحيم: «لا شأن لك . . لا أريد أن أسمع صوتك . . كلمة واحدة بعد ذلك ينهال عليك السوط» . . انصب الهول عليها انصبابا حتى كاد جسدها أن يتهاوى على الأرض . . لحظات لم تعد تعى فيها ما حولها؛ وهل يمكن أن يلاحق قلبها هذا الهول المرير . . ثم تعيش! . . تظل تعيش! . . هل يملك «الإنسان» . . هل وضع الله فيه هذه القدرة؟!

رغم كل شىء . . فقد انطوت اللحظات . . والساعات . . كما تنطوى كل اللحظات وكل الساعات؛ وانتهت وقفتها المروعة فى ذلك المكان والتى يسمونها فى هذا الوكر الفاجر «حفلة الاستقبال لكل وافد جديد!» . . وسيقت بعدها إلى هذه الزنزانة الموحشة، تقضى فيها الأيام

والليلات فى صمت كئيب ألف فيه قلبها الهول وتدرب رويدا رويدا على مقاساة الآلام من كل لون!

* * *

كانت الكوة المفتوحة فى الباب الأسود المنتصب دوما كالمارد المخيف، هى منفذها الوحيد إلى الحياة؛ الحياة الرهيبة المتوحشة التى تقطن هذا السجن الكبير. . الساعات الطويلة تنطوى وهى واقفة على أطراف أصابعها، ملصقة وجهها بالباب تختلس النظر من آن لآخر من هذه الكوة المطلة على الفناء كلما أمنت عيون الحرس؛ فإذا أحست أن عينا تراها ارتدت بسرعة إلى الوراء، أو دقت الباب لتطلب شيئا، تبرر به وقوفها وراءه، حتى لا تنهال عليها سياط الوحوش!

من خلال الكوة الصغيرة خبرت بعض أسرار هذا العالم الفاجر؛ وامتلأ قلبها بصور كثيرة من صور العذاب الوحشى للمؤمنين؛ ووعت مخيلتها أبشع جرائم التاريخ، وسجلت أعصابها فظائع أسود عهد مرت به هذه البلاد! . . لا تمر ساعة يخلو فيها هذا المكان الوحشى من لوحة للجزيمة تصم أمة بأسرها بالعار. . ليتها تستطيع أن تصور ما يدور لتنشره يوما على الغافلين والسادرين فى دخان الدعاية الفاجرة، تصور الأبرياء قتلة، وتنعت وحوش الغاب الضالعين فى الخيانة أبطالا أبرياء!

ماذا لو رأى الناس، السادرون فى غفلتهم ما تراه هى من كوة هذا الباب؛ هذه المجزرة الرهيبة التى لا تكف فى ليل أو نهار؛ لو رأوا تلك الكومة المهشمة التى لا يجد الذئاب فيها موضعا بغير كسور أو جراح! ماذا لو رأوا عذابات كل صباح وكل مساء؛ لو رأوا طوابير المعذبين الجرحى والمحترقين تصطف واقفة الساعات الطوال بغير حركة واحدة، ولا هزة ساق، ولا إراحة قدم مربوطة بضماد تشعب منه الدماء، فى شمس النهار المحرقة، فى انتظار الذى يجىء حين يحلو له أن يجىء،

يفك الأربطة الغارقة فى الصديد والدماء، ليضع المطهرات فوق الجروح المتعفنة، الغائرة فى السيقان والأقدام والظهور؛ والألم القارس يجتاح الوجوه المحتسبة الصابرة؛ ماذا لو شاهدوا الفناء بعد المعركة، ورأوا أكوام الجلد المقصوص الذى أماتته السياط؛ وأحرقته النار والمكواة وأعقاب السجائر؛ تملأ بعد الحفل الحزين ساحة المكان! . . ماذا لو عرفت الجماهير المسكينة الغارقة فى طوفان الكذب الفاجر، لحساب من يذبح المؤمنون ويمحق الإيمان؛ لو عرفت أنها سوف تسلم فى القريب هدية ذليلة ووجبة سائغة، لذئاب البشر وطرداء اللعنة!

لو تستطيع أن تسجل فى ذاكرتها كل لحظة من لحظات هذا الجحيم، وتحفظ فى مخيلتها كل صورة تعرض فوق هذا المسرح الوحشى الموغل فى فجور الكفر، حيث ينطلق فيه سباب دين الله من كل لسان! . . ليتها تملك أن تحفظ كل صورة كما حفظت تلك الصورة المفجعة لواحد من الإخوة تعرفهم حين رأته من هذه الكوة فى أيامها الأولى هنا . . لقد انطلقت يومها مسرعة حين سمعت اسمه ينادى . . لكن يا لهول ما رأت . . أو هذا هو؛ الإنسان الذى تحفظه ذاكرتها منذ طفولتها البعيدة؟! . . هذا الهيكل غائر العينين، ناتئ العظام، وقد حلق شعر رأسه، وأرسلت لحيته وشاربه بلا تهذيب كأنه من سكان الغاب! . . كانت حلته الزرقاء الخشنة المرقعة ملتصقا أكثرها بجراح جسده الدامية، ينزعها عنه الجند بقسوة لا يبلغها الوحوش فتخرج غارقة بالدماء واللحم المتهرئ! أما قدماه ويداه فكانت كلها ملفوفة بالرباطات تغرقها بقع الصديد والدم؛ رأته يتحامل على نفسه وتنطق ملامحه بألم غائر ليهبط الدرج القليل فينهال عليه السوط يتبعه صوت الوحش بالسباب الفاحش ليسرع الخطى . . ليجرى . . ثم ينهال السوط من جديد من اليد الفاجرة

فوق الجروح ! . . لقد أن له قلبها أنينا موجعا حينذاك وانهمرت من عينيها دموع غزيرة ، وباتت ليلتها يغمر روحها هم ثقيل . . ليلتها ذهبوا به إلى مجازر التحقيق من جديد ، فلم يعيدوه إلا قبيل الصباح . . لم تكن تظن وقتذاك أنها هى أيضا سوف تساق إلى هذا الهول الكبير !

يالله . . أو سوف تساق هكذا كما يفعل بالرجال كل يوم . . كل ساعة فى ليل أو نهار؟ ! ولسوف ينادى اسمها كما تنادى أسماء الرجال؟ ولسوف تؤمر بالجرى وينهال عليها السوط كما ينهال على أجساد الرجال والجند يطاردونهم حتى يختفوا من مجال بصرها ! . . وحدقت ببصرها التائه فى دائرة النور الصغيرة الملقاة على أحد الجدران من كوة الباب . . أو يمكن أن يحدث هذا؟ ! . . أو تحتمل كما يحتمل الرجال ؛ هؤلاء الأبطال ؛ فى صمت واحتساب؟ ! . . اختنق قلبها بالبكاء ولكن عينيها الشاخصتين إلى لا شىء قد غمرهما جفاف قاس فلم تندا بقطرة دمع . . ترى أين أخواها الآن؟ ! إنهما لا يعرفان أنها هنا هى وشقيقتها . . لا يعرفان أنها سوف تساق إلى مجازر التحقيق ! . . ولكن . . ماذا يستطيعان لها الآن حتى لو عرفا كل شىء ، حتى لو مزقها المجرمون إربا . . إنهما عاجزان عن كل دفاع . . أمضها ذلك الخاطر واعتصر قلبها ألم مرير . . كلهم أسرى ، مخذولون ، لا يملكون شيئا لأنفسهم . . حتى كرامة بيوتهم ؛ حتى عزة نسائهم . . تجمدت الكلمات فى قلبها وتجمدت نظراتها على الجدار بلا هدف !

صحت من تيهها على طرقة عنيفة على الباب فهبت واقفة . . دخل أحد الجند يسلمها طعام العشاء ، ثم خرج وأغلق الباب . . وقفت هنيهة تائهة . . ماذا تفعل؟ . . وهل تستطيع هذه الليلة أن تزدرد هذا الطعام؟ ! . . كل ليلة تجاهد جهادا قاسيا لتزدرد منه لقيمات لتحيا . . لئلا تنهار وتفقد تماسكها وصبرها ؛ ولكنها الليلة لا تستطيع ؛ الليلة يتساوى

لديهـا كل شيء؛ ومـاذا لو تنهـار! . . ومـاذا لو تتـمـاسك! . . إنهـم مهزومون . . فلول معركة خاسرة . . أسرى في أيدى أعداء الله . . ليس فى أعصابها الليلة قوة تزدرد بها مثل هذا الطعام! رائحته تصيب معدتها بالغثيان؛ لماذا تقسو على نفسها كل هذه القسوة! لتتركه إذن ولتتحمل مشقة الجوع . . ألمه القارس يعوى فى أحشائها كل ليلة فلا يتركها تنام رغم اللقيمات التى تبتلعها بجهد جهيد . . نظرت إلى جفنة الطعام بقذارتها التى تصدم القلب ورائحتها التى تزكم الأنف وهى ملقاة على الأرض وبجوارها الرغيف الأسود لا تتبين لونه من لون الأرض، وما لبثت أن انفجرت تبكى لأول مرة منذ مجيئها إلى هذا الجب . . تبكى بصوت مسموع!

لم تذهب إلى الباب كعادتها كل ليلة تشاهد من كوته الصغيرة المشهد الأليم الذى تحرص على مشاهدته كل مساء عند توزيع الطعام! ففى ستر الظلمة التى تغشى جو الحجرة تقف فترة طويلة كل ليلة لترى مأساة توزيع الطعام؛ لترى الرجال وهم يخرجون واحدا بعد واحد من زنازينهم فى طابقى المبنى ليتسلموا هذه الجفنة الحديدية الصدئة وفوقها الرغيف الأسود هنالك فى أقصى الفناء، ثم يعودون يشيعهم السوط ينهال مع كل خطوة على الأجساد التى تؤرقها الجراح . . الأجساد التى أنهكت قواها ومزقها العذاب فى مجزرة التحقيق؛ والأقدام الملتفة بالخرق مزقتها السياط والمكواة تجرى وتجرى على مضض، لتقى الأجساد بعض لذع السياط؛ ولتنهى سيل السباب الفاحش، يتناول الآباء والأمهات والأجداد، ويتناول قبل كل شيء دين الله الذى أتى بهم إلى هذا المكان فأتعبوا ساكنيه!! . . كم يحمل إلى قلبها ذلك المشهد من قناعات حول طبيعة المعركة التى يخوضونها . . وكم يحمل من قسوات تزدردها كل ليلة مع تلك اللقيمات؛ وتنطوى عليها حنايا روحها حتى تنام!

الليلة لن تستطيع أن تمارس هوايتها الأليمة تلك، لا يقوى قلبها الذى تجثم فوقه الأثقال أن يزدرد المشهد الأليم وأن يلف عليه حناياه. . انكفأت فى فراشها، تكفكف بطرف ثوبها قطرات الدمع التى تحجرت فى عينيها. .

ليتها تنام. . ليتها تترك اللحظة القادمة لرب اللحظة القادمة. . ليت قلبها المفزع يلجأ إلى الله كما يلجأ فى أكثر ساعاته فتغفو آلامه ويهدأ فزعه. . وتنام! . . ولكن حاجزا ثقيلا من الظلمة يفصل الليلة بين روحها وبين ذلك النور. . فهل نجح الطغاة؟! واستطاعوا بهول عذابهم أن يسدوا الطريق بين قلبها وبين نور الله؟! . . هول عذابهم؟. . نعم. . إنها اليوم لا تملك أن تزيح عن خيالها تلك الكومة المهشمة التى يربطونها بالحبال. . ولا ذلك الوجه المشوه الذى تنبثق منه الدماء. . ولا تلك الحلة الزرقاء تنتزع باللحم المتهرئ والدماء! . . لا تستطيع أن تبعد عن أذنيها صدى الصرخات المروعة، والهراوات الثقيلة والسياط، والمكواة والحبال والكلاب المفترسة وأصوات الزبانية تجلجل بالسباب! وهذا الهول الموجع المذل الذى ينهال إليها من فتحة الباب كل نهار وكل مساء. . .

الجدران الشاهقة الارتفاع، تحسها تقترب وتقترب. . تكاد تطبق عليها وتجثم على صدرها. . غطت وجهها بيديها، وضغطت على عينيها بقسوة. . كم تتمنى أن تنسى. . أن تهرب من الحديث الذى يلاحقها ولا يفتأ يلح على قلبها ويطوقه فلا تستطيع منه فكاكا، لو تخرج من هذه الزنزانة المقفلة. . ولو لبضع لحظات! . . لكأنما صور الهول كله قد اختزنت فيها وضمت عليها أضلاع هذه الجدران الشاهقة!

كان القرآن الذى يبث من محطة القرآن الخاصة التى شابهت قصتها قصة «مسجد الضرار»؛ يذاع من مذياع بعيد فى ذلك المجزر الواسع

المترامى الأطراف؛ وتنقله مكبرات الصوت عبر قطاعاته؛ كان قد بدا يتسلل إلى حجرتها عبر الفتحة الصغيرة فى أطراف الجدران مختلطا باللعنات والسباب الآتية من الفناء القريب! . . أذناها مرهفتان وقلبها يحاول أن يلتقط أطراف الآيات، يعزلها عن بقية الأصوات! . . صدى الآيات المشعة ترتد بعيدا عن القلب الغارق فى الهول والصوت الخاشع يرتل غير عابئ بتشتت قلبها الجريح . . على الرغم من كل تبعثر مشاعرها تنفذ إلى روحها آيات طالما أحبتها وطالما رددتها فى صلاتها وهى فى رخاء عيشها الآمن فدقت أعماقها المغلقة الغارقة اليوم فى الظلام: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾! . . انداحت الكلمات فى حناياها كصلصلة الجرس . . نعم . . (ولكن عذاب الله شديد)! . . أشد من هذا الهول الجاثم هنا فى كل ركن؟! . . أشد من هذا الجحيم المستعر ليل نهار يتفنن فيه الطغاة وينشبون به فى أجسامهم وقلوبهم وكراماتهم أظافر حقد مجنون؟! . . انتفض قلبها من تساؤلاتها انتفاضة عنيفة وسرت فى جسمها كله قشعريرة مفاجئة . . وهل تقارن هذا الذى يقدر عليه الخلق، الضعاف مهما تجبروا، بصنع الله . . جبار السماوات والأرض؟! . . كيف؟! كيف اختلطت عليها الموازين بهذه الظلمة العارضة . . أهكذا . . عند أول اختبار؟! . . كيف؟ . . وأين الحديث الذى كان يشعشع بالحماس؟! . . فاجأها هذا الخاطر فتفتحت عيناها وحدقت فى فضاء الحجرة المظلم الذى يتسرب إليه بصيص خافت من ضياء من خلال الكوة فى أعلى الباب . . ترى هل رسبت روحها فى أول اختبار؟ . .

ما أفظع هذا لو قدره الله لها؟ . . ارتعد قلبها لذلك الخاطر المزعج،

وسرت فى روحها يقظة مفاجئة؛ وارتد خيالها سريعا إلى صورتها فى بيتها، فى محرابها المختار من حجرتها للصلاة، تدعو الله وتستميت فى الدعاء، تتوسل إليه وتبتهل فى سجودها أن يجعلها من عباده المجاهدين؛ من أحبائه الذين يأتون فيما بعد يصلحون ما أفسد الناس من سنته؛ . . من الشهداء الذين كتبت لهم سعادة جواره فى الملأ الأعلى . . رغم كل العذابات، بل بكل العذابات! . . أو ليست على يقين من حقيقة المعركة لا يتلبس بها عرض من عرض الدنيا، أو لا يزيد من يقينها ما تشهده كل لحظة من فجور كافر! . . أو ليست على يقين، حتى لو أخطئوا خطأ القصور البشرى، أنهم جند الله، وأن هؤلاء الطغاة هم جند الشيطان؟ . . فما يكون هذا الهول الذى تراه بجوار عذاب الله؟! . .

أليس هو ساعات أو أياما تزول! . . أتراه خالدا كعذاب الله للفجرة الطغاة؟ . . أم تراها ممن قال عنهم الله: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾! . . أليست كل هذه الأهوال هى فتنة الناس؟! . . لماذا تركت روحها تضلله تلك العذابات الصغار؟! . . لماذا كل هذه الظلمات التى تغرق قلبها منذ الصباح، منذ علمت أمر استدعائها للتحقيق؟ . . وما الذى سيحمله التحقيق مهما عنف وطال إلا بضع عذابات من عذابات الناس! وقد حملها قبلها الألوف والألوف على طول المسيرة! . . وكيف إذن سوف تخوض فى مقبلها الآتى عند الله ذلك التحقيق الأكبر لو تخاذلت هنا أمام الهول العابر فانحرفت عن الطريق وصارت من المستضعفين؟!

سرت فى جسمها راحة شملت جسمها المنهك، فمدت ساقيها اللتين كانتا مشدودتين إلى صدرها، وأسندت رأسها إلى الوسادة خلفها

واستلقت فى استرخاء مريح . . ليرتكب الزبانية إذن ما شاءت لهم شياطينهم . . بكل كراهيتهم لدين الله ؛ بكل حقدنفوسهم ، يحاولون أن يقيموا جحيما للمؤمنين كذلك الذى أعده الله لهم هناك . . ولكن هيهات فما أعجزهم وما أشد قصورهم ، رغم كل ذلك الركام من ألوان العذاب . . إنهم يلهون ويعبثون ساعة من نهار ؛ والتحقيق . . التحقيق الأكبر منهم على مد البصر . . على بعد خطوات . .

كان وقت طويل قد انطوى حين آبت من رحلة روحها التائهة فى شتى الفجاج إلى واقعها ؛ فعدلت وضع جسمها فى الفراش محاولة أن تنام . . . طاف بقلبها حنين موغل إلى إخوتها ، تستنشق معهم جوهم ، جوهم الواثق فى طريق الله من وعد الله . . ترى أين هم الآن؟ ! . . مبعثرون هنا فى تلك الأقفاص ؛ لا يعلم أحدهم شيئا عن أخيه . . لا بأس . . فكل واحد منهم وحده مع الله . . ألم يهبوا أنفسهم من قبل لله . . ألم يسيروا من قبل فى الطريق المستقيم إلى الله على بصيرة . . ألم يتصدوا لحمل الأمانة الثقيلة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . . ألم يعمر قلوبهم نور الله وسط ظلمات جهالة طامة يخبط فيها الخلق؟ ! ليكن إذن مقامهم هنا أو هناك ؛ فكلها أرض الله . . وانطوت لحظات ولفها نعاس . . .

* * *

انتفضت من نومها واقفة دفعة واحدة فارتج جسمها المخدر بالنعاس حتى كادت تهوى إلى الأرض فاستندت إلى الجدار القريب . . صحت مفزوعة على صوت طرقة عنيفة على الباب انفتح على إثرها حتى آخره ؛ ودلف نور المصباح القريب فى الخارج إلى داخل الزنزانة فافترش مساحة

من الأرض، وألقى ظله على الأشياء الملقاة عليها . . استلت نفسها سريعا من النعاس الذى يجثم على أعصابها وعلى عينيها . . دق قلبها دقات متتابعة عنيفة حين وقع بصرها على الشبح العملاق الذى يتصدر فتحة الباب؛ أعقبها اضطراب فى حركتها فهوت إلى الفراش فى إعياء ظاهر . . انطلق إلى أذنيها قبل أن تعود للتماسك صوت خشن آمر وحشى النبرة: «قفى . . ضعى شيئا على كتفيك وانطلقى ورائى!

ظلت لحظات محدقة فى الشخص الواقف فى فتحة الباب . . إنه ذات الرجل الذى فتش أشياءها فى مكتبه ليلة جاءت ونزع منها أكثر ما تحتاج إليه! وهو الذى قذف بكتاب الله الذى كان فى حقيبتها بعيدا فلم تستطع أن تتناوله! وهو الذى أبغضته كل ذرة فى قلبها منذ ذلك المساء! ثم لم تره بعد ذلك . . مازالت تذكره . . تحفظه مخيلتها حفظا على غير عادتها فى نسيان سمات الأشكال . . وهل تستطيع أن تنساه وقد ارتبط فى مشاعرها بتلك الليلة، ليلة الهول الأولى! . . وقد كان هو ذاته قطاعا من ذلك الهول الرهيب؛ ملامحه واغلة القسوة تشبه ملامح النمر الجائع، يحملها جسد عملاق مخيف؛ وينطلق منها صوت خشنه الشراب الحرام فوق ما فيه من وحشية مفطورة، كأنه ينطلق من أعماق السعير . . من أين يا ترى جاء الزبانية الكبار بهذا الحشد الرائع من المجرمين؟! . . كأنما نبتوا جميعهم من هذا الجحيم وترعرعوا فيه!

حدقت هنيهة فيه كأنها لم تع ما قال . . عيناها المفزعتان التائهتان تشيان بأنها لم تع ما قال! ولكن أعماقها كانت قد وعت كل شىء . . إنها ذاهبة إلى . . إلى التحقيق!

تحجرت الكلمات فى فمها . . وفى قلبها تحجر كل شعور أو تفكير أو خيال؛ وبدت عيناها باهتتين لا تحملان معنى على الإطلاق . .

لم ينبس الرجل الرهيب بكلمة أخرى ؛ كانت نظرته الصارمة الآمرة تشي بالهول المرتقب؛ وتدفعها إلى تنفيذ الأمر دون إبطاء ؛ . . فى حركة آلية مضطربة تكاد تفقد معها توازنها ، غطت رأسها بخمارها الثقيل ، ووضعت سترتها على كتفيها وانطلقت خلفه صامتة . . كل شيء فيها يلفه الصمت ، وكأن كيانها كله قد غشيه موت مفاجئ! . .

لم تدر كيف تسير ، ولا كيف تتحرك قدماها ؛ لم يعد لها سيطرة على شيء حتى على قدميها السائرتين! . . الطريق طويلة بينها وبين مكاتب التحقيق؛ خبرت ذلك حين قطعت تلك الطريق أول ليلة جاءت . . قدماها اللتان أصابهما استرخاء مرهق لا تقويان على السير السريع . . لا تستطيع ملاحقة ذلك العملاق المخيف . . تتسع الهوة بينهما بعد لحظات رغم كل محاولاتها أن تسرع . . أن تلاحق خطوه . . تتخاذل قواها رويدا رويدا مع تسارع دقات قلبها اللاهثة حتى تكاد تتوقف!

إنها ذاهبة . . إلى أين هى ذاهبة؟ . . كيف لا تفكر . . كيف لا تحس؟! . . كيف تسير؛ تجد فى السير لتلاحق خطو السائق الكريه؟! . . ذاهبة هى . . نعم . . ذاهبة إلى جحيم الأرض . . إلى مكاتب التحقيق . . إلى الهول المحدق . . الفزع الغامض . . ليس أسوأ ما فيه السوط . . ولا الكلاب المفترسة . . ولا المكواة . . ولا الأصوات الوحشية الهادرة بالسباب الفاحش . . ليس شيء من ذلك تخاف . . فسوف يعينها الله . . ولكن الهول الذى سمعت عنه يتردد بين صغار الزبانية الفجار . . لقد جاءتها اللحظات الرهيبة التى عاشت هولها منذ الصباح . . هل يترك الله عباده . . هل يترك إماءه اللائى أخلصن الصون والعفاف فى طاعته ؛ هل يمكن الفجرة سُبّاب دين الله من المؤمنات؟! . . فى أعماقها طمأنينة

واغلة إلى الله . . كلا لن يتركها فريسة للكفرة الفجرة! ستقاوم حتى الموت . . وما أعذب الموت!

هل كان مرور ذلك الطبيب في الصباح من أجل ذلك . . لينذرها . . لتتخذ أهبتها وترتب في وقتها المتسع مقالها؟! . . كلا . . بل لينبئهم كم يحتمل كيانها من أنواع العذاب . . فهذا عمل الطبيب في هذه الأرض الفاجرة! الكل متواطئون في الجريمة الكبرى التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا!

أوه! فلتدع الآن هذا كله؛ لتدع الطبيب . . لتدع التاريخ؛ ولتفكر فيما هي مقبلة عليه بعد لحظات . . ماذا سوف تقول؟ . . في أي شيء سوف يسألونها . . هي لا تدري شيئا مما يريدون! . . كيف ستتصرف؟ . . لن تقبل أبدا لنفسها أن تصرخ مهما فعل بها كما فعلت صاحبة ذلك الصوت الذي هز قلبها في ساعات الهول الأولى . . نعم، لن تصرخ بإذن الله؛ لن تطمع في ضعفها هؤلاء الكلاب . . الفاحشين . . لسوف تصمت؛ لن تقول كلمة واحدة مهما فعل بها . . يا ألله . . هل تستطيع؟! . . ولم يستطع ذلك أقوى الرجال؟! . . هل يتركها الله وحدها للوحوش القذرين الذين تجردوا من كل خلق ودين؟ . . هل يعصمها منهم؟ . . في قلبها يقين . . لا يترك الله أعراض عباده . . . من باعوا أنفسهم له . . نهبا للطغاة الفاسقين . . هي من ذلك على يقين!

أبطأ الرجل المخيف خطواته على الرغم منه، فقد كادت قدماها تكفان عن السير . . استدار إليها ونهرها لتسرع . فأجابه صوتها الهادئ معتذرا بأنها تبذل أقصى جهد . . بأنها لا تقوى على أكثر من ذلك . . وكأن قلبه الغليظ قد رق لها فأبطأ السير . .

أفكارها التي اشتعلت فجأة تستهلك قواها التي تبقت لها بعد يومها

الثقيل الطويل؛ والليل بوحشته وغموضه يلف قلبها المفزع . . يكمل هول الملهاة! . . والطريق الطويل . . ليته يطول فلا يصل . . ولكنها تسير . . رغم كل شيء تسير . . تسير إلى هناك . . وسوف تصل بعد قليل!

الصور الرهيبة تلفح مشاعرها رغم تماسكها الظاهر . . الكومة المهشمة؛ الوجه الذى تثعب منه الدماء . . واللحم المتهرئ فى البدلة الزرقاء . . والصراخ المفزع . . تلك الليلة كانت سيدة هناك تعذب! . . كانت فى مكاتب المجزرة . . ما أقسى أن تصرخ امرأة وتستغيث وسط هؤلاء الوحوش وهم ينظرون ويتشفون! . . جسدها لن يهمها؛ يا ليته يصمد للعذاب فلا يلجئها لما ترهبه وتخشاه! . . أن تصرخ أو تستعطف، أن تستعطفهم ليكفوا . . ليتها ما ولدت! . . ليتها ماتت قبل هذا الهول! . . ليتها ما . . . ولكن روحها أجفلت قبل أن تكمل الكلمات! . . هل تتمنى أن كانت خارج الطريق . . مع المستضعفين . . الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم؟! . . يا للهول . . كلا والله . . ولو مزقها الوحوش . . وأين تذهب من الله . . أين تذهب يوم الهول الأكبر؟! يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه؟! تثقله ذنوبه ويخزيه شروده عن الصراط المستقيم؟! . .

رفعت نظراتها التى تحدق فى الأرض كأنما تحصى خطواتها؛ فوقع بصرها على العملاق المخيف الذى تتبعه . . قوامه الفاره الواثق، ورأسه المرتفع فى خيلاء كأنما يريد أن يناطح السماء؛ ومشيته الآمنة المتعالية؛ وملامح وجهه الصارمة الآمرة التى تحفظها؛ وهو يأمرها أن تتبعه وكأنه ملك فى يده الحياة والبقاء وأقدار الله؛ وامتلك العيش الرغيد بغير انتهاء! . .

فى سبحة خيال تبثها أمنية غامضة رأته فى لحظة الضعف الكبرى . .

لحظة الإنسان أمام قدر الله النافذ، أمام قهره الغالب فوق عباده؛ أمام لحظة الموت . . حين يسترد الله سبحانه عاريته فيسحب من هذا الجسد المتأله نفخة الحياة؛ الحياة التى هى رصيد كل شيء فى دنياه . . القوة والشباب؛ الاستعلاء والخيلاء؛ حتى على الله!! ها هو ذا على الأرض مسجى . . الأرض التى يحفرها وقع حذائه فى صلف . . مسجى بلا حراك، لا يملك شيئا . . لا نظرة . . لا كلمة . . لا حتى همسة . . ولا إشارة مستعلية آمرة! . . ها هى الملامح الصارمة المتحدية تكف . . بلا معنى . . . تغدو . . بلا جبروت . . بلا قدرة . . بلا ذات . . والتحقيق؟! الهول الأكبر على بعد خطوات! . . ارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة ساخرة . . إنه . . وهم . . هنا . . وهناك فى المكاتب الكبار . . وفى قمة السلطان . . فقاعات صغيرة . . تطفو هنيهة عابرة . . فوق سطح المياه!

٣

الرؤيــــا

لم تنم ليلة البارحة، فلقد نسيت فى غمرة خواطرها التى أحدقت بها وسدت عليها المنافذ، أن تنظف الفراش من الحشرات قبل أن يغمر الظلام الغرفة الصغيرة وتتعذر الرؤية! . . هذه الحشرات المفترسة التى تزحف إليها إذا جن الليل كأنها الوحوش الكاسرة فلا تملك لها ردعا! تقضم كل جزء من جسمها وتتسرب فيه إلى كل مكان فتحيل حر الصيف اللافح إلى لذع ملتهب يشبه لذع الحريق؛ كأنها هنا قد دربت تدريبا خاصا على ذلك هى الأخرى لتقوم بدورها فى عملية التعذيب الكبرى؛ هذه التى تخصص فيها هذا العالم الوحشى المعزول عن عالم الحياة!

منذ ليلتها الثانية فى هذه الزنزانة، اعتادت أن تقضى ساعات طويلة كل يوم قبل أن ينحسر النهار ويسلم بصرها للظلمة، فى تعقب هذه الحشرات فى ثنايا الفراش وعلى الجدران الفارغة؛ الفارغة من كل شىء حتى من اللون؛ غير تلك البقع المتناثرة من لون الدم الباهت، وغير لطع الصديد الجافة تعلو وتهبط مع النتوءات والحفر التى يبدو من خلالها الجدار كأنما عبثت به يد مجنون ثائر، ثم عفا عليه الزمان!

اعتادت أن تقف الساعات تطارد البعوض الذى يشارك بكل قواه مع

أدوات التعذيب الهائلة ؛ يتلصص فى خبث مدرب حتى يصل إلى ما يريد
رغم كل مقاومة تبديها الفريسة ! . . كذلك البق الذى يتناثر خفيفا نحيلا
فوق مسطح الجدران الشاسع ؛ الجدران الأربع التى تحكم انغلاق
الزنزانة . . تقتل منه ما تصل إليه يداها الضعيفتان ، حتى إذا أوجعتها
صلادة الجدران ، خلعت حذاءها ، سلاحها الوحيد فى هذه الدار .
وأراحت به يديها المتعبتين . . ثم يفر الباقى إلى أعلى الحوائط حيث
يتوارى فى ظل الأوساخ !

أما ليلة البارحة فقد احتواها الفراش النارى حتى الصباح ؛ انطلقت
إليها الأسراب ، لا تدرى من أين جاءت ولا أين كانت تقطن ؛ هجمت
عليها من كل صوب وأحالت ليلها سعرات عذاب . . كل شىء هنا يعبث
بأجساد الضحايا فى ليلة سمر لاهية ! السوط والبعوض وأحذية الجند
وقهقة الجلاد وأفواه البق وأدوات التعذيب الجهنمية التى لا تحصى . .
وهم ؟ ! . . من هم فى هذه السهرة الفاجرة ؟ ! . . أهم حقا جند الحق ؟ . .
وقد كانت من قبل من ذلك على يقين ؟ . .

داهمتها صورة ؛ صورة حفرت فى قلبها وأعصابها أخدودا وفى
أعماق عينيها ؛ سهرت مع تلك الوحوش الصغيرة ، على جسمها الكليل
وقلبها الذى يعذبه تشتت السؤال وتناقض الإجابة . .

الصورة ليست ذات معالم تعرفها . . أحد الرجال الذين تمتلئ بهم
الزنازين التى لا تحصيها . . كانت الزنزانة مقابلة لها وهى عائدة من دور
المياه ؛ مفتوحة . . يبرز من فتحتها أحد سكانها ، واحد من آلاف
المعذبين ؛ لا تعرفه ، لم تره من قبل قط ، ولكن روحها تتعرف عليه بلمحة
عابرة ، تعرفه حتى الأعماق ؛ وجهه الصابر عميق الإيمان ؛ ملامحه
الراضية يكسوها صفاؤها بالجمال رغم التشوه البادى فى كل جزء . . لقد

كادت صرخة مدوية تنطلق من فمها دون تدبر، ولكن صوتها ارتد مكتوما إلى قلبها كالخنجر؛ كان الحارس وراءها يقودها إلى زنزانتها، يحصى عليها أنفاسها ونظرتها وخطوتها، وفى يده السوط!

كان منظرا مفرطا فى الهول؛ وقحا داميا مروعا! كان جسدا آدميا منتفخا كالبالون؛ بصعوبة بالغة يخرج زحفا من فتحة الباب الواسعة؛ يتعثر كل خطوة والألم العميق الصارم يرسم خطوطا واضحة فى كل جزء؛ فى ملامح الوجه، فى حركة الجسم وفى خطوة القدم؛ ولكن صرخات الوحوش ولعناتهم تنصب، يتلوها وقع السياط! . . كان يساق إلى المجزرة . . مجزرة التحقيق!

هل يهلكهم الله لأنهم كانوا أصغر بكثير من حقيقة المعركة، ومن ضخامة الكيد؛ ومن شمولية الهدف واتساع الطريق الموصل . . رغم إخلاص قلوبهم؟!

لا تنسى نظرته المفزوعة إليها حين رآها؛ واللوعة والأسى يكسوان ملامحه الغارقة فى آلامه؛ وقد بدا على ملامحه الانزعاج المروع لوجودها فى هذا المكان الفاجر . . كان ذلك أقسى عليه من كل عذاباته! . . كأنها أخته؛ كأنها ابنته؛ . . كيف لو عرف أخواها أنها هنا؟! . . تمارس العيش وسط هذا الشر الفاجر كله؛ فى هذا المكان العجيب لأول مرة فى تاريخ هذا البلد؛ فى هذا المكان الذى اجتثت من تربته كل بذور الخير والحياء وآدمية الإنسان! . . أتراهما يحتملان الصدمة . . يصطبران على هذا الهول لو عرفاه؟! . . لو عرفا كيف تقضى الأيام والليلات تحت سطوة العسف المريب؛ وكيف تقضى ضرورات العيش بين أسافل الخلق وتحت إمرتهم . . لو عرفا فقط ما تقاسيه فى أمر دورة المياه . . فى الوضوء للصلاة! . . ربما كانا هنا، فى ظلمات هذه

الزنازين المغلقة الموحشة وفى أسرارها الرهيبة؛ لا يشعران بها وهى منهما قريبة؛ لا يستشعران هذه اللهفة الوالهة إليهما وهذا القلق الواغل فى الأعماق عليهما . . أتراهما ما يزالان بعد على وجه البسيطة؟! أم إنهما هناك فى جوف الصحراء كالعشرات؟!

الكلمات بلا صوت، ولكنها تخترق اللحم والعظام وتنفذ فى الذرات؛ يرهص قلبها بالهول؛ هذه المرة ليست كالسابقة! . . هل يعود الجمع كاملا إلى العش الحبيب؟! لماذا ترهص أغوارها بالحدث الرهيب؟! أهو هول المكان . . وهول ما يحدث فيه؟!

تذكر تلك الليلة، حين داهم الزبانية بيتهم ليأخذوها؛ كان فى الحى مأتم بعيد؛ ولكن مكبر الصوت فى السرادق البعيد ينفذ منه صوت القرآن يتلى هناك إلى الحى كله . . كان يتلى حزينا خاشعا خشوع الموت؛ لا تدرى لماذا اقشعر بدنها كله تلك اللحظات . . أحست أن نغم الآيات حزينة ترتل يسقط فى جوفها كالنذير!

أمام عينيها المطبقتين ارتسمت واجهة بيتها؛ الباب الحديدى الكبير المغلق، يحيط بجنباته السور المرتفع يلفهما الصمت . . ترى هل بقى أحد هناك؟! أم إنهم جميعا هنا؟! مطمورون فى زنازين العذاب؛ تطوقهم مؤامرة الطغاة، كلاب أعداء الله الكبار؟!

البيت، الأمن، والشمل المجتمع؛ وعبادة الله الخاشعة فى دعة؟! . . ترى ألم تكن طريقا للمؤمنين؟! . . ترى تنافى ذلك مع رضاء الله والجهاد فى سبيله فى هذا العهد المظلم؟! . . المعانى تغوص غامضة . . والكلمات . . الجمل . . تتبادل مواقعها فى ساحة المعركة الواسعة فى داخلها، ترتطم بها الآيات الكريمة التى يحفظها قلبها، والتى طالما هزت نبضاته وأوغلت فى شغافه! . . كم هى فى حاجة لأن تلم شعث أفكارها

ونزعات قلبها المبعثرة؛ أن تضع قدمها على صلابة الطريق الصحيح . . وتستريح!

لقد كان فى الزمان القديم، فى وقائع التاريخ، فيما حمل عقلها وقلبها من حكايات الجهاد التى أسرتها وملأت عليها أحلام دنياها؛ كان للجهاد سمت آخر: حر يقاتل حرا . . يَقتل . . يُقتل . . يفوز بالشهادة . . ويفوز الجمع بالنصر . . وتنتشر رايات الفرح فى الربوع يخفض فيها الحزن الصغير رأسه . . اليوم . . انقلب الوجه . . تبدلت الصورة حتى أغوارها . . فى قمة وقف الباطل منتفشا، مدججا بالسلاح، مزهوا بقوته . . والحق؟! . . أين هو؟! فى أعماق النجس، تطمره الظلمات . . لا أحد يراه . . لا أحد يستمع إليه . . حتى يسمع به! . . أخرس لا يتفوه . . حتى الآهة لا يملك أن يطلقها . . أهذا هو الجهاد الآن . . فى هذا العصر المقلوب؟! . . هل عاد الزمن أدراجه إلى نقطة البدء؟! . . إلى الصوت الهامس فى دار ابن الأرقم، إلى الصلاة فى الشعاب المخبوءة؟! هل عاد الدين غريبا كما بدأ، وقد حملته القرون تلو القرون؟! . . هل عادت سمية وياسر وبلال فى صورة جحافل هذا الحشد الجرار؛ ألوف تتلوها ألوف؟!

تتمنى أن تهدأ فى داخلها الساحة . . أن يقف ارتطام الكلمات المبهمة . . أن توضع النقط فوق الحروف! . . الله لا يحب الباطل؛ هذا يقين! . . ولكن الباطل يستشرى، يعلو فوق الموج، يظهر فى الأرض، يحكم، يتحكم! لماذا . . أين الحق . . الحق الأبلج كالصبح؟! . . وهم؟! . . أهم حقا أصحاب هذا الحق الأبلج كالصبح . . أهم حقا أهله وخاصته . . أهم كانوا أهلا لحمله؟! يسلكون جادة الطريق، أم اضطربت السبل تحت أقدامهم فتاهوا عن السبيل؟! . . تاهوا عند نقطة البدء؟!

لماذا هم هنا . . دون عزمة واحدة ، دون خطوة واحدة . . لماذا هم فقط يُقتلون؟! . . لماذا كل هذا الهوان ، كل هذا الهول . . والجسد المنفوخ يلاحقه السوط؟! . . هل تاه الصحاب عن معالم الطريق؟! قصروا فعمهم الله بالعقاب؟! . . لو يستريح القلب إلى جواب . . هل من معين يكشف الحجب أمام بصرها المكدود . . هل من إشعاعة من ضياء تأخذ بروحها التائه إلى بر أمين؟!

أغمضت عينيها وغابت عن كل ما حولها تنبش فى أعماق الذكريات ، فى ذلك الملتقى الكبير الذى كان لهم ؛ كان يقلق قلبها ذلك الغبش المترامى لا تبين فى طياته ملامح الصور ؛ الأصول الناصعة تغيب ، يلفها الضباب بالواقع الثقيل ؛ فيقنع الموجهون بالقليل!

الكبار رؤيتهم قريبةالمدى ؛ أفكارهم تتوه فى أوائل الطرق ؛ عقولهم تعيش داخل التاريخ تنوء بالأطر الجاهزة ؛ تغيب عنها النظرة الثاقبة للواقع القريب فيحسبونها رحلة قصيرة ووثبة ظافرة! . . قلوبهم نقية طيبة ، لكنها لا تعرف أعماق الخبث المحيط ؛ لا تستطيع أن تكشف المؤامرات وتحبط اللعبة الماكرة!

والصغار يركضون مغمضى العيون مسلمى القياد لا يفكرون ، سطحية الجموع من حولهم لا تفوتهم ؛ حماسهم كبير ، إخلاصهم غزير ، لكن علمهم قليل!

والناس فى الدائرة الواسعة؟ . . الناس خارج التكتل الصغير نائمون يغطون فى أحلامهم ؛ يغرقون فى البركة الراكدة ، يبحثون عن «لقمة العيش» ؛ بالعرض القليل يقنعون . . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . . والسرك ساحة فارغة من الحرس ، ، يُجهز المسرح للمؤامرة ، يمهد

الطريق للكارثة! . . والبهلوان الكبير يقوم بالدور الخطير ويحبك اللعبة الغادرة!

كان عليهم أن يدركوا ملامح الزمن الجديد وتقاطيع وجهه الكالحة؛ ولكنهم ركنوا إلى علمهم القديم. . رفضوا صوت الحادى وأغمضوا العيون عن مشعله الهادى وساروا فى الأدغال بغير دليل فتاهوا فى تلافيف الشوك!

الحية الهائلة تزحف؛ تملأ الطريق، تفترش كل فج، تكمن فى كل حنية، وسمها الزعاف يزكم الأفق ويخترق الأعماق؛ ولكنهم أغمضوا العيون؛ وأحسنوا النيات. . كانوا مخطئين حين غضوا الطرف، حين واجهوا الجرائم الكبيرة بالصفح الجميل؛ حين رفضوا النظرة الثاقبة وأشاحوا عن وهج المصباح!

لم يقدروا الأمر حق قدره؛ ظنوا أن المشكلة مشكلة اختلاف رأى داخل الأسرة الواحدة؛ تعالجه الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة! تسطحت فى عيونهم أبعاد الطريق، وتخلفوا عن ملاحقة الركب المسرع، أغمضوا البصائر فأوقعوا فى الشباك! . . هل كانوا جميعا آثمين فعمهم الله بالعقاب؟! . . هل . . هل من يجيبها جوابا تسكن به الريح العاصفة فى أعماق الروح؛ وتلتئم الكلمات بالآيات؟ . .

ولكن وحدها هى؛ وحدها تساكن تجارب العمر المحدودة، ووعيها المكدود. . هل يتركها الله وحدها فى عتمة التيه تضل؟ . . وهى تتشبث برحمته الواسعة، بنقطة النور تتمركز فوق المبدأ والمنتهى، تحاول فى كدح مضن أن تفترش الطريق. . كل الطريق؟!

هل يترك الله عباده لقصورهم؛ تلوكهم الحية الرقطاء بأنيابها الزرق فيغمر الفراغ الأسود البقاع؛ ينطوى ذلك الأفق المضىء وتذبل النبتة

الجميلة بعد أن سقوها أعمارهم والدماء . . هل يتركها الله سبحانه، تسفى عليها الرمال؟!

هل يكتب الله الهوان على عباده الذين أحبوه واختاروا ما عنده على كل متاعات الأرض؛ هل يردهم خائبين ويرفض سعيهم إليه، حتى لو أخطئوا وتاهوا فى منحنيات الطريق؟! . . وذلك جهدهم وقد أخلصوا قلوبهم له؛ وهو القائل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾؟ . . والذين يحاربون دينه فى كل طريق ويطاردون دعاته فى كل أرض ويحاصرون عباده فى كل فج، طلقاء يرفلون فى نعومة العافية، النصر عندهم والحبور؛ وهم تحت يده، وهو القاهر فوق عباده، وهو اللطيف الخبير!

هل كان على الحادى الناصح أن يرفض المسيرة القاصرة، أن يصرخ فى وجه الغفلة؛ أن يشرح أبعاد الخطر ومعالم الرحلة الطويلة فى أدغال الشوك فلم يفعل؟! . . وهى؟ . . هل كان عليها أن ترفض؟! ومن كانت هى حتى تدلى بالرأى؟! . . والكبار يمسكون بالمجداف، والكبار يحركون الدفة . . وما على الصغار إلا المسير؟! . . فهل يعمها الله بعقابه . . هل يعمهم كلهم بالدرس القاسى كأصحاب أحد . . هه . . وأين هم من أصحاب أحد . . والخطأ الآن كبير . . والوعى الآن قليل . . و . . . . واجتذبها بعنف صرير المفتاح فى الباب . .

انتشلها الباب المفتوح من أغوار الدوامة المائجة فارتدت مسرعة إلى الواقع وإلى الوعى . . حملقت فى فتحة الباب الذى انفتح لأول مرة منذ جاءت على مصراعيه وانطلقت من فيه ضجة هائلة . .

ارتسمت فى فتحته الواسعة قامتان فارعتان عريضتان ترتديان الحلة الصفراء، فلمعت فى مخيلتها - رغم الهول - قصة «الخشب المسندة» . . تبادرها صوت جاف خشن، لم تدرك للوهلة الأولى من أى القامتين

انطلق، يصرخ فيها قائلا: «قف. . سعادة الباشا». . وقبل أن تتهيأ للوقوف بادرها الصوت الآخر أقل حدة قائلا: «هل تريدين شيئا؛ هل تشتكين من شيء؟!». . وقبل أن تجيب كان ظلهما يتوارى، ويحل محلهما سواد الباب الفارغ وصمته!.

كانت قد أتمت وقفتها حينذاك. . آلمها ذلك وعض قلبها. . لماذا وقفت؟ لماذا نفذت الأمر الفاجر المتأله؟!. . أهو الخوف؛ الرعب المعبأ فى كل لحظة وفى كل ذرة وفى كل نبرة صوت؟!. . أهى المفاجأة التى تهز القلب حتى لو كان شجاعا شجاعة الأبطال؟!. . أم هو أدبها الذى درجت عليه فى أسرتها، غلبها فى مواجهة من لا يستحق؟!

دارت بقلبها حيرة لافحة: كيف تتصرف، وحدها دون معين، فى مواجهة هذه المواقف. . الصغيرة الكبيرة. . وتلك المواقف الكبيرة الهائلة. . ومسئولية كل كلمة وكل حركة، وكل لحظة من لحظات هذا الجب الفاجر؟!. . كيف وقد درجت فى أعماق الصون، ولم تهبط الساحة الواسعة فتتعلم!. . وقد أنفقت أيام عمرها فى بيت تحكمه تقاليد عالية السمت، وصيغت أفكارها فى تلك القمة العالية؟!. . لماذا لم يؤهلهم الكبار لمواجهة هذا المصير. . لماذا لم يعدوا العدة قبل أن يقدموا. . كان ذلك بعيدا عن توقعاتهم، فالرؤية المسطحة لم تدرك غور أحقاد الطغاة ولا مدى فجورهم، ولم تدرس فى إمعان أبعاد اللعبة وعمق أهدافها!

ولكن صرير المزلاج فى الباب ما لبث أن انتزعها مرة ثانية من لجة السؤال والجواب، فتوجه انتباهها إلى دفعة النهار الداخلة إلى جو الحجرة الخافت الضوء فى باكورة الصباح. . كان الجندى يحمل صحفة طعام الإفطار ويمشى بخطى وئيدة نحوها. . قال لها بنبرة لم تتعودها منذ

وطئت قدماها هذا المكان: «تفضلى» . . بعد برهة صمت قصيرة، سألها فى أدب إن كانت تريد شيئا آخر! . . فى فمها ارتجفت الكلمات من وقع المفاجأة، قالت فى تلعثم وهى لا تصدق أذنيها: «نعم. . أحتاج إلى ماء. . إذا أمكن ذلك» . . تعرف فى مقامها الطويل منذ جاءت أن الماء من المحرمات إلا بقدر! . . جرعة صغيرة فى الصباح ومثلها فى المساء! . . أفيسخر بها هذا الطارق الجديد؟! . . ولكن ملامحه المهذبة لا تشى بذلك؛ . . أجابها بهزة لطيفة من رأسه ثم مضى خارجا وترك الباب مفتوحا!

مبهوتة النظرة تحملق فى الباب المفتوح على آخره؛ وعلى مد البصر يترامى النهار، يسرى بغير عائق. . كيف حدث هذا؟ . . أهو انقلاب حرر البلاد من الطاغوت. . ثم يخرجون على إثره من هذا المكان السحيق؟! ثم توقفت فجأة مشدوهة تتساءل. . هذا المنظر الذى تراه الآن لأول مرة، سبق أن رأته من قبل بكل دقائقه. . الزمان والمكان. . وهى. . وكل التفاصيل. . مطلع النهار وارتفاع الشمس فى الأفق القريب. . الباب المفتوح وامتداد الصحراء أمامه. . وهى واقفة تنظر مشدودة القلب والبصر إلى بعيد. . متى كان ذلك، ولم تطأ قدماها هذا المكان من قبل؟! . . تحفظ المكان بدقائقه. . امتداد الصحراء إلى حيث امتد البصر، والشمس تشرق من هناك وقرصها الأحمر يزحف وليدا. . الحجرة. . أرضها وجدرانها فى دفعة النهار الداخلة. . والباب العملاق الأسود المفتوح على مصراعيه. . وهى؟ . . أين كانت تقف فى تلك المرة؟! كانت تقف عند فتحة الباب الواسعة مسنودة بجوار الجدار؛ هذا كل الفرق. . متى كان ذلك؟ وكيف يعيش الإنسان مرتين فى الحدث الواحد؟!

قطع عليها تأملها المشدوه وقع قدمى الحارس الجديد يحمل إليها كوبا نظيفا قد ملئ بالماء وهو يقول: تفضلى يا هانم.. ثم أردف بصوت خافت: يا أختى.. أنا «ابن ناس».. ولى أخوات مثلك.. أنا هنا الأسبوع القادم كله.. اسمى سراج.. أى شيء تحتاجينه أنا هنا تحت أمرك!».. انسحب فى أدب جم وأغلق الباب برفق.

يا للطف الله.. ويالوقع قطرة الندى الإنسانى على القلب الجريح! عيناها مازالتا تحدقان فى نفس الاتجاه.. تسترجعان فى الخيال المنظر الذى غاب من أمام البصر.. ومن الداخل تمور مشاعر غامضة.. أين كان ذلك؟ فهو بكل تأكيد قد كان.. وكانت تغمرها فى ذلك المشهد سعادة غامرة مازال القلب يسترجع صداها.. هل جاءت إلى هنا وهى بعد فى عالم الذر؟! فى مسبح الأرواح!!.. متى يا ترى وكيف؟..

رويدا رويدا يتشقق الغيم.. تنقشع كتله المتراكمة كتلة بعد أخرى، ومن خلال بزوغ الصحو يبرز المشهد مضيئا مفعما بالنور.. نعم؛ كانت هنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أول رؤيا لها بالرسول!.. كانت رؤيا باهرة.. وكانت رؤية باهرة لطلعته الكريمة لأول مرة فى حياتها.. رأت أنها سوف تزف إليه.. وفى هذه الحجرة التى قيل وقتها إنها مملوكة لامرأة يهودية يتم العقد!.. وهل هذا الذى هى وهم فيه إلا لحساب هذه اليهودية؟!... من هذا الباب ذاته خرج رسول الله فى تلك الرؤيا، يمشى فى نفس هذه الصحراء المترامية بعد أن وعدها بعود قريب!.. وظلت هى واقفة عند فتحة الباب ترقبه حتى غاب عن ناظريها..

كيف غابت عنها ذكرى تلك الرؤيا، وقد ظلت طويلا تبحث عن

تأويل لها فلا تهتدى . . كيف طمستها فى ذاكرتها هذه الظلمات المحيطة ، وتركت قلبها يغرق فى الحيرة بغير مجيب!

الفرحة تطفر بها مشاعرها ، تتخطى الجسد المرهق . . تتخطى الجدران المسدودة ، تحطم الأبواب المغلقة والأسوار . . اللحظة يرسو الموج الحائر وتستقر السفين إلى شاطئ أمين . . اللحظة تطمئن . . تعرف أنه الاجتباء . . وأنه الجهاد المقدس مهما تكن أخطاء المسير . . تعرف من هى! أين هى فى القافلة الممتدة فى الزمان البعيد ، الواغلة فى أعماق الوجود ؛ الواصلة إلى آفاق النور! . . توقن أنه الطريق . . طريق هذا الرسول الكريم . .

٤
الرمال السائبة

منذ متى جاءت إلى هنا. . جاءت؟! . . وهل يجيء إلى هذا المكان أحد بإرادة منه! . . كلا! . . فلتصحح السؤال إذن . . لتقل : منذ متى جيء بها إلى هنا؟ . . إلى هذا السعير الموقد ليل نهار؟! ومن ذلك الفاجر الذى يأتى بامرأة إلى هذا المكان الذى جعله بناته المستعمرون لمرتكبى الجرائم من جنودهم، ولم يجرءوا فى تاريخهم البغيض كله على أن يسوقوا إليه المواطنين من الرجال؛ ولم يعرف تاريخهم النكد بكل جرائمه امرأة واحدة جاءت إليه أو عذبت فى عرصاته! . . لكنهم «الأبطال»، «أبناء الوطن»، و«رمز العزة والكرامة»؛ . . هؤلاء هم الذين جاءوا بها إلى هذا السجن الرهيب، مقطوعا عن الحياة والعمران والناس؛ مدججا بالسلاح؛ تعج جنباته بأبشع ما عرف التاريخ من أدوات العذاب! . . يقولون إن مصر محرومة من حكم أبنائها منذ عصور الفراعنة؛ إلا فى هذا العهد السعيد! فهل هؤلاء هم أبناء ذلك الفرعون الذى لعنه الله وأنزل فى لعنته قرآنا يتلى؟!

لحظة صمت مفعمة بالأسى تطفو من أعماقها، تتشعب فى حناياها؛ لماذا تفتش فى الكلمات، تحاول أن تعى ما وراءها . . هذا الوعى الذى يغوص فى المعانى ويبحث عما وراء السطور؛ أليس هو الذى أوقعهم

فيما هم فيه وجاء بهم إلى هذا العذاب الرهيب، والناس غارقون فى سبات ثقيل ؛ تكفيهم الكلمة الخادعة ليقولوا «نعم» وليسيروا مغمضى العيون فى الطريق المرسوم! . . لقد نجا الناس حين أغلقوا عيونهم وربطوا ألسنتهم وأوصدوا الأبواب فى كل طريق على عقولهم وانساقوا مع التيار الجارف . . إلى الهوة . . نعم . . ليكن . . ولكنه الطريق الأوحد الذى يعفيهم إلى حين من السقوط فى العذاب المهول! . . فى عذابات أبناء الفرعون الكبير!

يا ألله . . لماذا تصر على أن تظل تفكر؟! . . وتفهم؟! والفكر فى هذا العهد الرهيب، عهد الفراعنة المحدثين، جريمة لا غفران لها؛ فالفرعون وحده يفكر للجميع؛ فهو ابن «رع» وهذه الأنهار تجرى من تحته! . . أليست هذه هى جريمتهم الكبرى؛ حين فكروا وقالوا للفرعون «لا»! . . لماذا يفتشون فيما وراء ما يقال، يدركون بعقولهم المتلبسة بجريمة الفكر ما يراد بالبلاد والعباد؛ لماذا يعارضون ما تقرر أن يقر فى عقول الناس وتقاد به الجماهير حتى هوة الدمار! . . لماذا تصر أن تظل موصولة بوعيها القديم، برؤيتها الناصعة للأوضاع والأشياء؛ ألم يأتوا بها هنا لتتطهر فى النار من جريمة الوعى، لتعرف وتقر أنهم فقط خلقوا ليساقوا، وأن ابن الشمس وحده يفكر . . يقود، يستخف بالرعايا ليخفض الجناح لأولياء النعم!

ساقها تشقل فى خدر مؤلم، فلقد نسيت بعض الوقت أن تغير جلستها، وقد خبرت قسوة الأرض التى تجلس عليها فى هذا الجب، لا تعرف من أى مادة صنعها الأشقياء . . ولكنها اعتادتها على قسوتها . . تعجب . . لا تدرى كيف طوعت نفسها بهذه السرعة لمتطلبات هذه الحياة على قسوتها التي يذهل القلب لبشاعتها!

«هذه السرعة»! . . كيف؟ . . انداحت الكلمة فى حسها كصلصلة الجرس! . . وهل كانت تعيش فى غير هذا يوما من الأيام، لكأنما مرت عليها الدهور وهى هنا! وامحى فى حسها ما كان قبل ذاك! لكأنما نبتت دنياها منذ بعيد فى هذا القفر الكئيب . . ثقيل ثقيل، اللحظة تزن الجبال والدهور؛ الأيام ليست أياما تحصى فى عد الزمن . . والعمر! . . وهل يستطيع العمر اللاهث فى سرعة أن يحتوى مثل هذه الدهور! وهل تستطيع هى أن تحصى أيامها التى خلت فى هذا الجب الرهيب . . هذا البرزخ الرهيب بين الحياة والموت، هل تحسب الدهور فيه بمقاييس الأيام والسنين وأعمار البشر؟!

الزمان والمكان . . هل يعيش الإنسان دنياه بغير حيز الزمان والمكان؟ هل يستطيع أن يعيش إذا فقد حواجز الطريق، معلقا فى فراغ، يهوى بغير قاع! . . فأما المكان فتعيه . . كاللون الأسود يجبه العينين، رابض فى كل لحظة، حافر واقعه الحارق حتى الغور! وأما الزمان . . فقد تاه الزمان . . لماذا لم تمسك به . . لماذا لم تتذكر؟!

داخل الجدران الأربع والباب الأسود الفارع كجسد الشيطان تعيش، حفظت كل شىء عن ظهر قلب . . الفراش الرث الملقى فى مهانة بجوار الحائط، الحائط ذى الفتحة فى أعلاه تطمسها أسلاك صفيقة تحجب صفحة السماء . . حقيبتها الصغيرة يغطيها التراب الكثيف هى كل متاعها فى هذه الحياة، يجاورها هذا الكوز» الذى كان بالأمس فى المرحاض؛ يحمل داخله جرعة ماء تختلط برائحة السردين! . . حتى لون الحائط الذى كان يوما أبيض من غير شك، ثم حال إلى لون القيح تحفظه هو الآخر عن ظهر قلب، تحفظ بقع الدم الباهتة ترسم أشكالا فوق الجدران، وجه امرأة باكية هنا، عينان جاحظتان هناك، وطائر يهم بالطيران وجبهة

بغير أنف . . حتى الثغرات الغائرة فى الجدران تراها ، ترتسم أمام عينيها حتى فى ظلمة الليل . . أحقا هى هنا منذ زمن قصير ؟ !

الإعياء يجتاح كل خلية ؛ نفسها وأعصابها وجسدها ، كأنها استحالت من جديد ، مضغة واحدة لا حدود بينها . . ولكن السؤال يلح على أعصابها كمطرقة تدق باستمرار : كم من الزمن انطوى منذ جاءت . . منذ ألقى بها فى هذا الجب الرهيب خارج حدود الزمن ! . . عبثا تقنع أعصابها بأن لا جدوى ، عبثا تحاول أن تبتلع الغموض ! . . الغموض الذى يغشى كل شىء هنا ، ، يطمس المعالم . . معالم التفكير والوجود والزمن والحياة . . عبثا تقول «لها» إنها هنا منذ جاءت ! . . وإنها هنا إلى أن يشاء الله . . الله وحده هو الذى لا يملك الغموض أن يحيطه ، لأنه يقين . . وهذا يكفى . . يكفيها ! .

رغم كل إرادة لها ، كغريق يتشبث بعود ، يندفع فكرها يلهث مفزعا فى تلافيف الغموض ؛ بكل قواه يحدق ، يتشبث بالملامح التى تفر هاربة ، يحاول الإمساك بتلابيب الزمن ! يبحث فى الذاكرة المكدودة عن اسم اليوم ؛ كيف تعيش إذا انهار الزمن ، تهوى . . تهوى بغير قرار؟ . . ترى أى يوم من أيام الأسبوع هو هذا اليوم؟ ! لو عرفته ، لسوف تتجمع الخيوط قبل أن تضيع معالم الخيوط ! . . منذ أيام قلائل . . كم؟ ! . . هل تستطيع الآن أن تتحقق من عددها . . ستحاول ذلك ! . . المهم ، كان يوم الجمعة . . توقن من ذلك ، فالمذياع الذى يأتيها صوته فى أحيان قليلة ، كان ينقل صلاة الجمعة . . هل تستطيع أن تتذكر متى كان ذلك اليوم . . تغمض عينيها ، بكل قواها تركز . . تغرز بفكرها فى المعضلة فى إصرار . . تحسه قريبا ، تكاد تلمسه . . تنبش فى مخيلتها عن معلم . . كلا ، لا شىء يميز ! . . كل يوم بعدها كان ككل يوم . . كثيرة تحسها تلك

الأيام التى انطوت بعد يوم الجمعة ذاك؛ . . لكن كم؟ . . أربعة؟ . . أكثر؟ . . كلا لا تستطيع . . لا يثبت فى المخيلة شىء، حدث وحدث فى يوم خاص؛ كالزئبق تفلت، لا يثبت ملمح ! . .

لا يأس، ولا تيأس . . فلتترك هذا، ولتحص ما قضته من أسابيع . . من أشهر؟ ! . . شهر؟ . . أكثر؟ . . فى أى شهر هى الآن إذن؟ لعلها لم تجاوز الشهر الأول! . . هالها مرور هذا الخاطر؛ أمن المعقول أن هذا الرصيد الهائل الذى داس ما قبله من وجود، حصيلة شهر واحد؟! بعد كل هذا الذى رأت، الذى عانت والذى استوعبته أعصابها، بعد هذه التبدلات الهائلة فى كيانها، حين غدت كالعجين الذى اختلط فى كيانه كل شىء بلا فاصل، بلا حدود، بعد هذا التبدل فى جسدها حين غدت ملابسها فضفاضة واسعة، ترتج هى فى داخلها كطفل ينتعل حذاء أبيه . . أيحدث كل ذلك فى شهر . . شهر فى مسيرة الزمن المألوف! . .

السؤال يعود يلح؛ لا يترك لخاطر آخر أن يشغل الفراغ . . حتى الذكرى تتوارى . . حتى ما كان فى هذا المكان الرهيب وما سيكون . . السؤال يطوق الفكر فلا تملك الفكاك . . منذ كم هى هنا؟ . . تجاوزت الأسابيع؟! الشهور؟! . . فى أى شهر إذن تعيش الآن . . يالقسوة التيه! . . كيف تعيش بغير معالم؟! . . لا تعرف اليوم . . لا تعرف الشهر . . كالغريق يعلو ويهبط . . لا يبصر شاطئا!

لابد أن تسعى . . بكل قواها تسعى لتعرف، الآن، قبل أن تتوه كل المعالم . . كيف تحيا؟ كيف تواصل لو انفلت تماما من يدها الخيط؟! . . لتركز، ولتعد إلى بداية الخيط! . . كانت ليلتها الأولى هنا هى ليلة التاسع عشر من أغسطس . . تحفظ هذا التاريخ، يحفر فى الأعماق؛ لا يتوارى أبدا مع أسراب الأيام الذاهبة . . كل الأيام تتراءى أطرافها فى الذاكرة ثم

تغيب إلا هذا اليوم . . يومها جاء الزبانية إلى دارهم مدججين بالسلاح كأنهم ذاهبون للقاء العدو الرابض على الضفة الأخرى! . . جاءوا يطلبونها هي أيضا بعد أن ذهبوا بالشقيقين واحدا بعد الآخر . . وبعد أن حملوا شقيقيها إلى حيث لا يدرى أحد؛ تذكر تلك الليلة كأنها الأمس القريب، كل التفاصيل حاضرة فى وعيها، أليمة غائرة الألم؛ ولكنها تحب أن تتذكرها بكل تفاصيلها؛ هى الصلة الباقية بينها وبين الوجود الواضح المعالم، بينها وبين الوعى؛ بينها وبين ضوء النهار حيث لا تروغ الأشياء فى غبش الظلمة وفى تلافيف الضباب!

تتمنى لو تظل تذكر . . تتذكر كل يوم وكل ليلة، كل ساعة وكل دقيقة؛ منذ أخرجت من بيتها وقذف بها إلى هذا الجحيم؛ إنها تاريخ، تاريخ ارتبط بالقضية الكبرى فى هذا الوجود، تاريخ الصراع الخالد بين الحق والباطل، بين ألوهية الله سبحانه وتأله العبيد! . . وإنه تاريخ هذا الوطن، يدخل فى دين الله أم يخرج منه، يبقى لعباده أم يقذفه الضلال تحت أقدام أعداء الله والناس نيام!

تشبثت بكل لحظة فى الأيام والليلات . . تحاول أن تحفرها فى الذاكرة . . كل جزئية فيها ثمينة، وكل لحظة منها معلم فى مسيرة التاريخ؛ ولكنها تتوه، وتتوه منها معالمها فى طيات غموض مرهق؛ تحس أنها تغرق . . فى لجة من الضباب تغوص ذاكرتها، تحس أنها تهوى فى فراغ، فى هلاميات لا يثبت منها شىء . . لو تظل موصولة بالوجود الحى فى داخلها؛ لو تبقى تملك واقعا له سمت!

. . . الساعة . . ساعتها، تلك الآلة الصغيرة التى لم تقدرها قدرها؛ كانت تلبسها للزينة؛ فإذا عادت قذفت بها فى صندوق حليها بغير اهتمام! ما أحوجها الآن إليها تنقذها من غمرة الضباب . . الآن تدرك

لماذا نزعها عنها الشياطين منذ ليلتها الأولى . . شريرون ، أذكياء ، خطط لهم سادتهم خططا بارعة فى تعذيب الإنسان ، فى سحق إنسانيته!

الآن تدرك نعمة الله حين جعل الشمس والقمر حسبانا ، حين كور الليل على النهار وكور النهار على الليل ، حين حدد للإنسان سبلا وأطرا . . حين لم يتركه هملا يخبط فى فراغ . .

فى ماضيها حين كانت تحيا فى العالم الحى ، كان الزمن حاضرا مجلوا ؛ ميسرا فى كل حين ، دقات الساعات تنبئها دون مشقة ، والليل الزاحف والصبح المسفر والنافذة المفتوحة لوصوصة الضوء ، ونور القمر ، وحركة الحياة تعد اللحظات ؛ فإذا افتقدت يوما وجدته ماثلا فى عشرات الأوراق لا يضيع . . هل تصورت يوما أن تفقد الزمن ، أن تعيش خارج سياجه . . ما أشق أن يعيش الإنسان بغير إطار!

شملت أعصابها لهفة لأن تعرف كم هى الساعة الآن على وجه التحديد! . . ولكن كيف؟! . . حتى الشمس لا تراها إلا حزمة من شعاع ينزلق من الفتحة الصغيرة فى أعلى الجدار ؛ فحين يكون ذلك الشعاع فوق الحائط المجاور لجلستها من الجهة اليمنى تقوم لصلاة الظهر . . وحين يتراءى كالطيف فوق الباب الأسود ، تؤدى صلاة العصر ، لا تعلم على وجه اليقين إن كان ذلك موعد الصلاة ؛ ثم تنبئها أسراب الطير العائدة إلى أعشاشها ، مارة من أمام الفتحة فى أعلى الحائط ؛ بالغروب الزاحف قبل أن تزحف الظلمة وتختفى معالم المكان . . والزمان!

أما فى الصباح فيتكفل بإعلامها ببزوغ الصبح وقع قدمى الحارس الثقيلة ، تصطك بالأرض الخشنة ؛ أو حركة المزلاج فى الباب المغلق من الخارج الذى يبدو فى غلس الفجر كشبح مخيف! . . ثم . . ثم يدلف الزمن ، يمضى فى دورته المعتادة . . لا شىء جديد ، لا معلم . .

الأصوات فى الخارج لا تشى بشىء . . نداء الأسماء بين الحين والحين . . حركة أقدام تجرى يلهبها سوط يهوى كأنما ينحط من جبل . آهات متقطعة وأنين . . ثم يسود الصمت . . لا جديد! وفى الداخل . . لا شىء . . فقط ضوء النهار حتى ينسحب ويخلى مكانه للظلمة ، تغمر كل الأركان . . تسحق المكان والزمان!

فجأة تحس الجوع ، ينبئها بأن النهار ينزلق نحو نهايته ، مع أن حزمة الشعاع لم تبد بعد فوق صفحة الباب المسدود! . . ربما كان فى الجو غيم! . . ماذا لو بقيت هنا حتى يدهمها الشتاء ، حين تتكاثف الغيوم فتختفى حتى هذه المعالم القليلة للزمن من زنزانتها؟! ثم تغوص معالم اليوم كله فى المجهول؟! وتغوص معالم الأيام كلها ، والشهور والسنين؟!

ارتطمت الكلمات بالفزع الجاثم فى أعماقها ، وانساحت دوائر قلق غامض تطفو فوق مشاعرها كأنما قذفت حجرا ثقيلا فى أعماق بركة راكدة . . وهل يمكن أن تبقى حتى الشتاء؟! تبقى على قيد الحياة؟! . . ترى كم تبقى من الزمن حتى دخول الشتاء؟! . . ليتها تدرى ، ليسكن هذا القلق الذى أطل من الغور فاغرا فاه . . يبدأ الشتاء القارس عادة فى ديسمبر ، فهل اقترب ديسمبر؟! . . مستحيل ، فقد جىء بها إلى هنا فى قلب الصيف ، فى أغسطس ، فهل مضى عليها هنا هذا الزمان الطويل؟! وهل تبقى فى هذا العذاب حتى ذلك الشهر البعيد فى نهايةالعام؟! هل يتمكن الطغاة ، وهل يقبل الناس فى هذا البلد صاحب التقاليد الغائرة فى أعماق التاريخ . . ويسكتون؟ وهل يقبل العالم الذى يقول أهله إنهم مسلمون؟!

بصرها التائه فى غير وجهة ينغرز فى ثقب فى الجدار المقابل ، كأنما

يجاهد أن يخترقه، وعلى جانبى رأسها تنشد حبال الأعصاب بقسوة؛ تحس أن أشياء كثيرة فى داخل رأسها تتمزق. . تحاول أن تخترق سجف الزمن، ويضغط السؤال باستمرار من وراء كل الأفكار، يلح أن تعرف فى أى الزمن تعيش! فى أى شهر من أشهر العام؟ . . فى الخريف؟ . . نعم، فالجو الأصفر بدأ يخيم ويثقل ركود الزنزانة المغلقة؛ ولكن فى أى شهر؟! . . لو تعرف. . لو استطاعت أن تحسب. . أن تحصى الأسابيع، لاستطاعت أن تحدد الشهر. . فلتحاول أن تحسب. . أن تتذكر. . ولسوف تصل!

أول أيامها هنا كان يوم العشرين من أغسطس، كان ذلك يوم خميس. . السبت. . كان إذن اليوم الثانى والعشرين من ذلك الشهر. . السبت الذى تلاه كان إذن التاسع والعشرين؛ حين يكون ذلك الشهر واحدا وثلاثين يوما تكون نهايته يوم الاثنين؛ إذن لقد بدأ سبتمبر يوم ثلاثاء، حين بدأ سبتمبر كانت قد قضت هنا اثنى عشر يوما. .

فى اليوم التالى، يوم الأربعاء حدث ذلك الحدث الذى لا تنساه؛ أخرجت للمرة الأولى من هذه الزنزانة لتساق إلى مكاتب التحقيق. . وهناك يالهول ما كان هناك. . ما لم يشهده التاريخ إلا فى محاكم التفتيش ومعسكرات النازى!

منذ أعيدت ذلك المساء إلى زنزانتها لم تعرف رأسها طعم الراحة. . الصداع القاتل ينهش كل خلية، والأفكار تدور وتدور حول تلك الاتهامات التى انهالت، لا تدرى عنها شيئا؛ حول ما كلفت أن تقر به، تحت فظائع التعذيب؛ والتهديد الأشد هولا. . ولكن الذى يرهقها أكثر من ذلك كله هو هذا الضباب الكثيف الذى يلف أفكارها ويطويها فى تلافيف غموض مرهق! . . عبثا تحاول أن تلاحقها. .

كان ذلك اليوم معلما بارزا في حياتها ، ظلت فترة من الوقت تؤرخ به . . كانت تقول لنفسها ها قد مضى يومان بعد يوم التحقيق ؛ إذن فنحن في يوم السبت الخامس من سبتمبر ! . . ها قد مضى أربعة أو خمسة أو سبعة أو . . . ولكن الأيام تتالت واأسفاه ، وتداخلت الصور ، وامحت المعالم وتاهت في الرأس المكدود !

الصور الهلامية المختلطة الملامح تتوالى أمام بصرها المشدود في غير وجهة . . كان ذلك يوم الأربعاء بالتأكيد ! فقد مر الطبيب عليها صباح ذلك اليوم ، ومن حديثه الذي لن تنساه عرفت أنها سوف تستدعى للتحقيق . . وفي المساء ، مساء ذلك اليوم ذاته سيقت إلى المجزرة . .

ثم . . ثم انطوت أيام لا تذكر الآن عددها بالتحديد . . أيام منها كانت واضحة المعالم ؛ فيها لم تكن تستطيع أن تنام . . أن تجلس . . فالجراح كانت تغطي أماكن النوم والجلوس ؛ وكانت حين يغلبها النعاس بثقلته تضع رأسها بين ذراعيها وتستند إلى ركن بين الجدارين حتى تسقط إعياء فتصحو . . وحين اشتد بها الإعياء جيء لها بالطبيب ! . . نفس الطبيب؟ . . أم الآخر؟ ! لا تكاد تتبين الآن . . تحدق في فراغ ، في هلاميات الصور . . لو تذكرت . . فلسوف تعرف في أي يوم كان ذلك ، فذلك الطبيب الذي جاءها أول مرة لا يمر إلا يوم الأربعاء ! . . يغلب على ظنها أنه كان هو . . إذن كان ذلك يوم التاسع من سبتمبر !

تنفست نفسا عميقا مرتاحا ؛ ها هي رويدا رويدا تقبض على معالم الأيام ، وها هي ملامح الزمن تتبين . . لو ظلت تحاول فلسوف تستطيع ؛ ولو استطاعت أن تحدد موقعها اليوم لأراحها ذلك رغم كل الصعوبات ؛

فما أصعب أن يعيش الإنسان خارج سياج الزمن . . يتوه خطوه فى صحارى بلا معالم . . يتخبط فى لجة على غير هدى! . . إن الشياطين يتفننون فى أنواع العذاب!

يبدو أن الوقت قد طال وهى شاردة الفكر فى جلستها هذه، فقد دخل نصف جسمها الأيسر كله فى خدر متعب . . هبت واقفة تحاول أن تدفعه، خطوات إلى الأمام، خطوات إلى الخلف، خطوات ذاهبة آيبة إلى الباب المغلق تنفض عنها ذلك الخدر الثقيل . . ومن الكوة الصغيرة صوبت بصرها إلى الفناء . . صمت مطبق ثقيل . . ترى أين ذهب الشياطين حاملو السياط؟! ثم . . ألم نحن بعد ساعة استعراض الأجساد المتقرحة وتغيير الضمادات الغارقة فى الصديد والدماء، فى المحفل الحزين أصيل كل يوم؟! أم إن قطرات من الرحمة هبطت من السماء فوق هذا المسلخ الرهيب هجع تحت لطفها الجميع . . حسنا . . فلتعد إلى الإمساك بالخيط قبل أن يفلت من جديد!

. . . أيام كثيرة انطوت، واندملت الجروح والقروح، وما عاد اليوم يحمل من جديد يلتصق بالذاكرة . . لا شىء غير روتين اليوم . . ثلاث إطلالات لوجه الحارس، يلقى إليها بالوجبات الثلاث . . خروج إلى دورة المياه مرتين . . ثم صمت مطبق ثقيل إلا من نداءات فى الخارج وآهات وأنات لا يتميز فيها صوت عن صوت، وقرقعة سياط! . . كيف إذن سوف تجمع الحبات فى الخيط الطويل؟!

غمرها طائف من اليأس . . هل تكف؟ تريح رأسها المكدود وأعصابها المشدودة . . لحظات سكون غامت فيها الأشياء والصور وتداخلت فى

ضباب كثيف . . هل تظل تحاول؟ . . إنها مسألة حياة . . وجود أو ضياع !

شد فكرها المحدق فى أطياف الأيام الذاهبة صوت صرير الباب يفتح ، ثم دلفت قدما الحارس الثقيلتان تسحقان الأرض الصلدة أمامها ، وامتدت يداه تلقيان إليها بالطعام .

بكل حيرتها . . بكل رغبة الغريق فى التشبث بحبل النجاة ، استجمعت شجاعتها وألقت سؤالها إلى الحارس الذى لم تتبادل معه حديثا منذ جاءت . . قالت فى ابتسامة تحاول أن تكون ودودة : «فى أى أيام الأسبوع نحن اليوم؟» . . فوجئ الرجل بالسؤال فتلعثم قليلا ثم أجاب : «الجمعة» . . قالت وهى تضغط على دقات قلبها : «هل أستطيع أن أعرف فى أى يوم نحن من الشهر؟» . . . نظر إليها نظرة مليئة بالحذر ثم هز كتفيه مجيبا : «لماذا تسألين عن ذلك؟ . . لا أدرى !» . . قالت وهى تحاول أن تدارى ارتباكها : «لا شىء . . قالوا لى إننى سوف أخرج من هنا فى أواخر هذا الشهر . . فأحببت أن أعرف فى أى يوم نحن !»» . . . قال وقد تقلصت ملامحه وامتلأت بغضا لا تعرف أسبابه ولا مكامنه : «أنت؟ . . أنت تخرجين؟ . . من قال لك ذلك؟ . . لا تصدقى أبدا أن أحدا من بينكم سوف يخرج حيا من ها هنا . . أنتم أعداء الرئيس . . كل بيتكم جئنا به إلى هنا ! . . والذى يمر من جوار بيتكم يؤتى به أيضا إلى هنا !» .

ألقى بأحجاره الثقيلة المحملة بالحقد فى جوف الجب ؛ ثم انطلقت قدماه تسحقان الأرض الصلدة عائدتين من حيث أتتا . . ثم أغلق الباب . .

ظل بصرها معلقا فى فضاء الغرفة، وأذناها تسترجعان دون إرادة وقع الأقدام الثقيلة . . والكلمات! . . كل أهلها قد جيء بهم إلى هنا . . لا أحد منهم سوف يخرج حيا من هنا . . هل تستطيع أن تستوعب الكلمات؟! . . هل تستطيع أن تعيش . . أو أن تموت؟! . . هل تستطيع أن تستمسك بما هم عليه من حق . . تظل مربوطة القلب به . . بالعروة الوثقى . . أذلك هو معنى الرباط بالعروة الوثقى؟! . . هل كان عليها أن تجيء إلى هنا لتفهم معنى الكلمات التى تقولها فى حماس فلا تجاوز الكلمات؟! . . تبزغ فى خاطرها المشعث سورة البروج وتفسير سورة البروج الذى كانت تقرؤه فى تأثر بالغ وحماس . . حين حرق أصحاب الأخدود المؤمنين جملة . . حين قال الطفل لأمه «أقدمى ولا ترددى!» . . وتاه وعيها لحظات فى غياهب لا معالم لها؛ وتلاشى فى حسها الزمان والمكان . .

أغمضت عينيها . . ترى أين هم؟ . . ومتى كان ذلك . . جسمها يثقل . . يغيب فى هوة . . وقفز إلى خاطرها منظر كان يؤرقها حين قرأت قصة «لفيكتور هيجو» تصف إنسانا يغرق . . تبتلعه رويدا رويدا الرمال السائبة؛ امتلأ حسها بأنها تغوص . . تغوص تغوص . . فى رمال سائبة!

انتزعها من هوتها صوت طائر يزعق مارا بجوار الفتحة فى أعلى الحائط، فاجتاحت جسدها قشعريرة شاملة، تبعتها هزات متتالية . . انتفضت ثم هبت واقفة فى ذعر . . ها هى أسراب الطير تتراءى فى بقعة السماء ثم تغيب، تنبئ باقتراب الغروب، وقد نسيت فى ذهولها صلاة العصر!

بنصف وعى تحركت مسرعة تتيمم كما تفعل لأكثر الصلوات؛ ثم ألقت بنفسها مسرعة فى الصلاة . . كالآلة تقرأ . . تركع وتسجد، لا تكاد تعى ما تقول؛ الوحدة والصمت والظلام المقترب الزاحف حثيثا تخترقها حتى أعماقها فيرتعش كيانها كله . .

وحدها مع الله . . وحدها أمام خالقها . . مالكها . . هل يبقى لظل أخر وجود . . امتلأ قلبها فجأة بحضور غريب لهذه الحقيقة . . «مع الله» . . «أمام خالقها» . . شملها جميعها ما يشبه الوهج فألقت بنفسها فى سجود طويل . . النور يتسرب إلى حناياها . . تسبح روحها فيه . . ممن تخاف؟! ماذا تخشى؟! . . والكل عبيد . . ضعاف . . الكل فى قبضة الخالق . . الزمان والمكان والألوان؛ يصرفها ويصرفهم بما يشاء حين يشاء! . . وهل يصيبهم غير ما كتب الله لهم؟ . . وانسرب برد طمأنينة وانداح فى أرجاء النفس حتى غطاها . .

حين أكملت صلاتها كانت تكتنفها خفة طليقة وتسرى فى كيانها كله . . إنها، وهى فى معية الله، فوق الزمان والمكان، إنها فى معية خالق الزمان والمكان . .

عادت إلى جلستها بعد الصلاة، أمسكت بطعامها الردىء تلتهمه فى شهية؛ ثم استلقت فى فراشها وهى تردد آيات من القرآن، أحبتها وحفظتها من كثرة ترداد شقيقها لها: ﴿أليس الله بكاف عبده؛ ويخوفونك بالذين من دونه. ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

٥

صوت من الضفة الأخرى

دق الجرس الدقات الخمس التى اعتادتها أذناها فى مثل هذا الوقت من كل يوم، منذ أن نُقلت إلى هذا المبنى. . خيم على نفسها الانقباض؛ فبعد لحظات سوف تهمد الحركة ويخيم السكون؛ ولا يبقى لها من يومها غير إحصاء الدقائق والساعات حتى مجىء الغد؛ حيث تبدأ جولة جديدة من العيش فى الصباح حول هذا المبنى الموغل فى الصمت؛ هذا المبنى الذى تقبع هى فى ركن صغير لحجرة من حجراته العشر الخاوية!

اشرأبت بعنقها وبصرها نحو الفتحة المرتفعة فى إحدى حوائط الحجرة المطلة على الفراغ الخارجى الواسع الذى تتناثر فيه عشرات من مبانى هذا السجن العتيق، وعشرات من أوكار التعذيب الرهيبة التى يسمونها «مكاتب التحقيق». . وصدم بصرها من جديد الحديد المتعانق طولا وعرضا، والذى يقسم الفتحة الضيقة إلى فتحات شديدة الضيق تزيد ضيق الزنزانة ضيقا، وتضفى على سكونها الكامد وانعزالها سكونا وانعزالا جديدين!

تحركت بقعة من ضوء الشمس متسللة من خلال تلك الفتحات الحديدية، ثم استقرت على الحائط المجاور، فأدركت أن العربات فى

الفناء قد استقرت فى الموقف الذى تصطف فيه كل يوم أمام مكاتب التحقيق المجاورة للمبنى استعدادا لانطلاقها بعد لحظات حاملة الزبانية الكبار من رجال المباحث الجنائية العسكرية إلى خارج المبنى الكبيرا . . أرهفت أذنها تتسمع . . ها هى الأصوات تعلو منادية جذلة . . حسنى . . جلال . . إحسان . . رياض . . إبراهيم . . هيا ، لقد تأخر الوقت . . قابلنى بالسيارة عند البوابة . . سألقاك فى المساء . . إلى موعدنا هناك . . إلى اللقاء فى المكان المعروف . . إلى الغد . . مع السلامة . . ليلة سعيدة . . ثم تنطلق العربات واحدة إثر أخرى . . تتبع كل واحدة منها دقات السلاح تحية لراكبيها ؛ حتى يختفى رجع الأصوات عن أذنيها المرهفتين .

أمالت رأسها إلى الوراء وألقتها إلى الوسادة التى ألفت من زمن قذارتها وألفت الجدار الذى تسندها إليه ، الجدار الذى لطخته بقع شتى من الأوساخ ومن الدماء . . دماء البشر ودماء الحشرات . . أغلقت عينيها واستغرقت فى انقباضة ساكنة !

بعد لحظات سوف تخمد الحركة تماما ، ستخرس أصوات السياط ، وتصمت الآهات وصرخات المعذبين ، ويكف عواء ذئاب البشر ، الصغار والكبار ، ويقف مجرى السباب المنهال كالسيل ، ويختفى وقع أقدام العسكر ونداءاتهم من هنا ومن هناك . . ثم يغلق الحرس أبواب الأوكار ، وينطلقون إلى المبانى الكبيرة الجماعية فى السجن الواسع ، أو يذهبون إلى مبانيهم الخاصة بهم فيه ، حيث يتلاقون فيصخبون معا ويعربدون ويضحكون ، ويتندرون بما قام به كل منهم من مهام عظام طوال يومه ؛ ليرفهوا عن أنفسهم عناء عمل يوم طويل ! ثم . . ثم يجثم الصمت الكئيب الثقيل على المبنى الخاوى وحواليه ؛ وتتسلل الظلمة رويدا رويدا

إليه، وتنسحب أشعة الضوء الكابية المتسللة من فتحات الطاقة الحديدية فى أعلى الجدار، ويتكاثف الصمت والظلام، وتتراكم فوق قلبها المكدود!

عبثا تحاول أن تقنع مشاعرها أنها تعيش على وجه الأرض! وعبثا حاولت منذ سيقت إلى هذا المبنى فى ظلمة مكفهرة فى إحدى الليالى، أن ترسم له فى مخيلتها صورة موصولة بعالم الأحياء، ولكن دون جدوى؛ صورة واحدة له ظلت تتمركز أمام بصرها وتملأ خيالها وتمتلك كل مشاعرها.. صورة القبر.. حفره الشياطين فى زمان بعيد فى سرداب مغلق فى باطن الأرض!.. حتى فى حلم اليقظة الذى كثيرا ما يراودها بالخروج من هذا المكان ولو للحظات قلائل، فإن خيالها لا يستطيع ألا يصعد سلما طويلا يتحسس فى ظلمته المسدلة طريقا إلى عالم الحياة وإشعاعات الضوء على سطح الأرض وإلى العالم المأنوس!..

كل شىء فى المكان يدفع بهذه الصورة الموحشة إلى قلبها، فهى لم تر الشمس طوال هذه الشهور الخمسة التى قضتها فى هذا المبنى؛ اللهم إلا تلك البقعة الصغيرة التى تعكسها العربات فى الفراغ الخارجى حين تصطف أمام أحد المكاتب فى انتظار الانطلاق بالزبانية إلى عالم الأحياء..

الضوء الطبيعى فى الخارج لا تطيقه عيناها حين تخرج أحيانا من هذه المقبرة، مستدعاة إلى مجازر التحقيق، كأنما أصيبت عيناها بالعشى؛ ينغلق منهما الجفنان قسرا فى مواجهة النور..

حتى العصافير الساكنة فى المبنى الصامت تشارك فى رسم الصورة التى تجثم على مخيلتها.. فعادة تسكن العصافير بهذه الأعداد الهائلة فى الأماكن الخربة حيث لا يزعجها أحد! وهنا حيث يجثم الصمت

ويتكاثف، تعيش هذه المخلوقات بالمئات لا تخشى أن تمسها يد بشر؛ تبنى أعشاشها فى الطاقات الصغيرة المنتشرة، تطل على الممر الضيق من الحجرات العشر المغلقة التى تكون المبنى الكئيب! . . أصواتها الصارخة الحادة، تضيف صدى جديدا إلى صدى الصمت الكئيب الرابض فى كل ركن، وتستحيل إلى جزء منه منبثق من طنينه ومرتد إليه . . معا ينسجان جنازة الحياة الدائمة فى هذا المبنى الرهيب!

منذ أكثر من أسابيع ثلاثة، تسكن وحدها، مفردة فى هذه المقبرة الواسعة ذات الحجرات العشر؛ وقد أفرغ المجرمون العتاة الزنازين التسع الأخرى من ساكنيها وأبقوها هى وحدها تفننا فى ألوان العذاب! وانطوت من أيامها حتى تلك القطرات الندية التى كانت تحملها إليها حركة الحياة الخافتة فى الحجرات التسع؛ باب يفتح هنا أو يغلق هناك؛ إنسان يتحرك فى الممر الطويل ذاهبا أو آيبا إلى دورة المياه؛ صوت يتوجه بحديث إلى الحارس النكد فيرد عليه . . ثم لفتها وحشة الوحدة القاتلة فى الصمت الرهيب؛ كل يوم فيها يتمطى ثقيلا كأنه دهر سحيق، يطمس كل ما وراءه من حياة . .

ليس هناك مخلوق حى يطأ هذا السرداب الرهيب اللهم غير ذلك الحارس الصلد القسمات، الصخرى القلب كأنما صيغ من هذا السرداب ذاته، صمته وقسوته وكآبته، قطعة منه، لونها من لونه، ملامحها من ملامحه، تتحرك أحيانا حاملة وقعه الكامد إلى أعماق القلب وتترك فى الأرجاء ظلها الراسخ حين تغيب!

حتى هذا الحارس، هذه الكتلة الصماء من الكمد، قد اختصرت حركتها فى هذا العالم إلى لحظات قصار ليجثم السكون ويطوق الساعات واللحظات! . . لحظات قليلة تخطو قدماه فى الدهليز الطويل، ريثما

يناولها صحفة الطعام أو يفتح لها الباب تخرج إلى دورة المياه ثم تعود ثلاث مرات كل يوم! . . لكنه وا أسفاه، لا يدع لها فرصة لحديث؛ حتى لكلمة واحدة! . . يفتح الباب فتحة صغيرة تسمح ليده بالنفاذ إلى الداخل يمد إليها وعاء الطعام، ثم يسحبها مسرعا ويغلق الباب!

تشتاق . . حتى أعماقها تشتاق . . أن ترى وجه إنسان . . وجه مخلوق حي . . حتى لو كان وجه هذا الحارس الصخرى القسمات! . . ما أضعف شوق الإنسان إلى الإنسان! . . تشتاق أن تتحدث؛ أن تفتح فمها بكلام؛ كلام مع مخلوق حي . . حتى لو كان ذلك الحارس الحجرى الصوت، الكريه النبرات! . . تشتاق أن تستدعى إلى أوكار العذاب، حيث الفزع الرهيب؛ حيث المكيدة المدبرة تلف الخيوط حولها وحول أسرتها كلها لتبرر الجريمة الشنعاء! . . تشتاق لحظة حياة تقطع حبال الصمت الممتدة؛ يتوقف فيها الصدى الرهيب المتطاول، يمد أذرعه، يطوق نبض القلب؛ يلتف حول الرأس ويصفر فى الأذنين . . تتمنى . . تتمنى لو تستطيع أن ترفع صوتها بالحديث ولو إلى نفسها! . . جربت ذلك مرة؛ ولكنها بعد لحظات قليلة أجفلت؛ اقشعر بدنها كله وغمرها خوف، أحست بالصمت يتكاثف عليها ويحتشد حواليها؛ يزحف جيوشا إثر جيوش؛ يتدفق من تلك الحجرات التسع المغلقة؛ ينفذ إليها من وراء الأبواب السوداء ويضغط على صدرها بقوة مدمرة؛ فأسرعت إلى السكون! وانكمشت فى الفراش تحملق فى الصمت الزاحف من كل صوب؛ ثم عادت إلى انطباق شفتيها الدائم من جديد!

لا ينقذها من هول هذا الصمت غير الصلاة . . تتحدث إلى الله فيفعم قلبها بالأنس والطمأنينة والرجاء . . ليتها تستطيع أن تقضى ليلها كله فى صلاة؛ ولكن أنى لها ذلك، وقد نزفت قواها جميعها فى هذا الأتون كل

تلك الأشهر الطوال طولا وعرضا، حتى ما عادت تقوى على الوقوف، بل الجلوس، غير لحظات قصار! . .

ليتها كانت تحفظ القرآن؛ إذن لأغناها في صمتها الثقيل عن صمتها الثقيل؛ لو تملك معها كتاب الله، لقرأت وقرأت، ولتبدل صمت عيشها وذخرت أيامها بنفحات الأنس والثراء والرجاء الحبيب. . ولكن الزبانية الفجرة قد نزعوه منها منذ أول ساعة وطئت قدماها هذا المكان النجس! . . قالوا لها: «هذا هو الذي أوصلكم إلى ما أنتم فيه» وألقوه بعيدا؛ فلم تستطع أن تمد يدها إليه تحت هول الرعب المحيط!

منذ ذلك اليوم الغائر في ذاكرتها، لفها الصمت ودثرها سكون كسكون الموت؛ وانطوى لسانها جافا بلا حراك داخل فمها؛ وأطبقت عليه شفتاها في صبر مر! . . لقد كادت تنسى، وهي تحدق بلا انقطاع، الساعات تلو الساعات، في هذه الكومة الضئيلة الصامتة، الساكنة الملتفة بالغطاء الرمادي، كادت تنسى أنها مخلوق حي؛ أنها هي. . هي ذاتها؛ أنها كانت في الزمان البعيد تحادث الأحياء فيرد عليها الأحياء! . . كان ذلك حقا من حقوقها البدهية المعلومة لا تفكر في أمره ولا تتنبه إليه! . . لم تدرك ما فيه من نعمة وما يحويه من كرامة وحياة أسبغها الله على خلقه ووهبها دون سؤال! . . كانت أحيانا تضيق بالحديث وتحن إلى لحظات وحدة أو ساعات صمت! ولم تكن تدري أن مرقة فجارا سوف يحرمون يوما كل ما أحله الله وينزعون كل نعمة أنعمها ويطوون عنها في جحودهم كل نعمة الوجود ونأمة الحياة! . . تهفو في لحظات رقة إلى حديث تلوكه داخل قلبها، تتوارد فيه الكلمات بغير صوت في حلم هائم تتوجه فيه إلى الأحياء الغائبين، إلى رفاق العيش وزملاء الحياة! . . ثم تنطوي اللهفة في ظلمة الصمت الثقيل. .

لا شيء . . لا حديث . . لا نأمة ، غير تلك الأصوات المنكرة تخترق أذنيها كل يوم حتى تدق الساعة الخامسة منذرة بانتهاء نوبة العذاب اليومى المسلط على عباد الله ، فقد ألغيت النوبة الليلية منذ أيام قلائل لا تدرى لماذا ؛ فربما أجهد السادة ذلك العمل الدائب فى الليل والنهار! لا شيء غير فرقعة السياط ، لا شيء غير فحش الشتائم تنهال من كل فم ، لا شيء غير سباب دين الله يتدفق كالمرجل تتبارى فى حلبته الأفواه وتلعلع به الألسنة ؛ لا شيء غير أنات المعذبين الصامدين وصراخ من فاق طاقته العذاب!

طافت بخيالها ذكرى قريبة لحادثة عارضة أوقفت عند بابها جبال الصمت بضع لحظات ، ثم انطوت ولم تعد بعد ذلك تعود! . . لحظات لم تنسها . . حين طرق سمعها ذلك الصوت الحنون خلف الباب المغلق ؛ كان ذلك مساء ليلة من ليالى الصمت الثقيلة ، حين تسللت قطة صغيرة خلسة إلى المبنى عندما فتح الحارس الباب الكبير للمبنى فلم يرها ، ثم ذهب وأغلق الباب خلفه . . لقد اهتز قلبها حتى أعماقه وهى تسمع النداء . . صوت القطة يموء . . خيط حياة ينادى الأحياء! . . تدفقت فى حناياها أكداس من الحنو والحب والرحمة ؛ نادتها فردت عليها النداء ؛ اقتربت من باب غرفتها المغلق وعاودت النداء . . يا ألله . . كم كانت فرحتها ذلك المساء بهذا التجاوب بينها وبين هذا المخلوق الحى الجميل الذى لم تره! . . لقد ظلت تناديها فتجيب فتهتز مشاعرها بالحنين . . الحنين الغامض إلى كل شيء ، وبالحنان الغامر لكل شيء ، وامتلأت عيناها بالدموع . . الدموع التى لا تدرى كنهها ولا غايتها ولا منابعها البعيدة . .

ليلتها وثبت من فراشها وثبا ، وهى التى تقوم تتوكأ على بقايا جهدها

الضعيف فيلفها الدوار؛ اقتربت من الباب وهى تنادى ذلك المخلوق الطيب الذى اخترق وحدتها وآنس وحشتها؛ الذى أقبل عليها يجاوبها النداء، ويحس بها قلبه الصغير البرىء من الدنس؛ الدنس الذى يغمر المكان ويفيض كالسيول! . .

كم كانت فرحتها ليلة ذاك وهى تعطى من قلبها هذا المخلوق حنانا وحبا فيتلقاه ويجاوبها إياه! لقد جلست على ركبتيها بجوار الباب المغلق لا تدرى كم من الوقت؛ حاولت أن تخرج أطراف أصابعها من الفتحة الصغيرة الضيقة أسفل الباب؛ واعترتها نشوة فرح رفافة حين وضعت القطة يدها على أطراف أصابعها الممدودة، فرحة تسربت إلى أعماقها فتهدج صوتها بخليط من الضحك والبكاء والنداء . . تمنت حينذاك بحرارة ملهوفة لو يفتح هذا الباب الأسود الواقف كالرصد، فتدخل القطة، تدخل لتعيش معها، تتحدث إليها وتشاركها طعامها وشرابها، تناديها فترد عليها النداء؛ واندفع خيالها يرسم الصورة الجميلة لذلك اللقاء؛ لصورة للحياة لا تتحقق فى هذا الجب السحيق! . . لكن وا أسفاه . . فلم يمض غير فترة قصيرة عاد فيها الحارس على غير موعد يقضى أمرا، وانفلتت القطة خارجة؛ خارجة إلى بحبوحة الحياة! . . ثم عادت المقبرة الكبيرة تضم رفاتها؛ عادت إلى الصمت الموغل يخترق الظلمة ويجثم فوقها . . يجثم على صدر كل شبر!

حين فتحت عينيها كان الظلام قد غشى جو الحجرة الضيقة إلا من أشعة خافتة تتسلل عبر قضبان الفتحة الصغيرة تحت السقف من مصباح بعيد فى الفراغ الخارجى، تتحول فى ظلالها الظلمة الكثيفة إلى أشباح متراقصة مخيفة يقشعر لها بدنها فترهف السمع إلى داخل المبنى؛ إلى الحجرات التسع الخاوية، ثم حجرة المخزن ودورة المياه! . . تتطلع إلى

صوت حياة ينبعث من إحداها، فيردها إلى قشعريرتها صوت الصمت، كئيبا موحشا يصفر فى المبنى العتيق ويرقد بكلكله ووحشته فوق كل شبر فيه؛ وتراءى أمام عينيها المحدقتين ذلك الممر الطويل الموحش، تقطعه الأبواب العشر السوداء العملاقة كأجساد المردة تحرس الفراغ الكئيب؛ والصمت الجاثم داخل الحجرات الفارغة يطل من ثقوبها ثم يجفل عائدا؛ فترتد عيناها مذعورتين.. تدفن رأسها وتلف جسدها فى الغطاء الرمادى، يلتف لونه بلون الظلمة فيحيلها هى أيضا إلى كومة من أكوام الظلام التى تتناثر فوق أرض الزنزانة وتتحاشر فى كل ركن من أركانها!

لحظات.. ثم تكتم أنفاسها رائحة الغطاء.. مجبرة تخرج رأسها؛ تشخص ببصرها إلى الضوء الخافت البعيد خلف النافذة الصغيرة، هاربة من الأشباح الرمادية الراقصة داخل ظلام الزنزانة.. تترقب بحواسها كلها صوت كل قدم يعبر الطريق قريبا من المبنى فى الفراغ الخارجى وتتبعه إلى منتهاه، فلعله أن يكون الحارس الصفيق فينقطع ولو إلى حين موكب الأشباح، ويبعث فى الجو قليلا من الطمأنينة؛ ثم ينتهى الخطو إلى رجع صدى بعيد، يخيم بعده صمت جديد، كأنما أضيف إلى ذلك الصمت المخيم القديم!

تدركها رحمة الله بعد حين، وإذا أقدام تعبر الطريق تقترب وتقترب، ثم تنحدر نحو المبنى.. تتطلع بقلبها كله وتتسرب إليها أشعة من طمأنينة ورجاء، ثم ما تلبث أن تسمع صرير المفتاح فى الباب البعيد.. صوت الباب البعيد يفتح محدثا أنة مخيفة ثم يغلق سريعا، وتنطلق قدما الحارس الثقيلتان فى الدهليز الضيق توقعان على الأرض الجافة نغمة حياة!

يضاء مصباح الممر، فتتسلل منه دفعتان من ضوء كليل من خلال

فتحتين جد صغيرتين فى أعلى الجدار الذى يطل على الدهليز . . تستوى جالسة فى الفراش انتظارا لطرقة الباب حيث ينفتح فتحة صغيرة ينفلت منها الضوء إلى جو الغرفة بضع لحظات فتحدق فى كل ركن منها بكل عينيها وبكل أعصاب رأسها تطرد منها أشباح الظلمة . . وفى ثوان تمتد إليها اليد الخشنة فتتناول بيدها النحيلة ذلك الوعاء الحديدى المألوف يحمل وجبة الطعام للمساء . . ثم . . ثم ينغلق الباب مسرعا! وما يلبث أن ينطفئ النور فى الممر وتنسحب القدمان الثقيلتان منسلتين، ساحبتين مع وقعهما المتباعد كل نأمة للحياة، ويطبق الصمت الكاسى والظلام!

تمتمت بغير صوت، وكأن الكلمات تأتيها من مكامن بعيدة وراء الزمن: هكذا يا بنيتى؛ ليلة جديدة فى وحدة القبر، حتى يمن الله عليك بطارق فى الصباح!

تحاول . . تجاهد فى إلحاح أن تزدرد اللقيمات فى الظلام ككل ليلة . . لماذا تغشى قلبها الكآبة هذه الليلة؛ ألم تتعود هذه الوحدة الثقيلة منذ زمن قد طال؛ على الأقل هذه الأسابيع الأخيرة، منذ قرر الزبانية إفراغ المبنى كله من ساكنيه، وإبقاءها وحدها نكاية وتعذيبا، حتى تطاطئ الرأس الذى تعبوا فى كسر شموخه؛ ألم تتقبل العذاب الجديد بنفس راضية وقلب واثق مطمئن؛ ألم تستروح روحها نفحات الرضاء وهى تلوك وجبة العذاب هذه فى كل ليلة؛ ألم تألف مجاورة أوكار العذاب وأصوات زبانيتها وضحاياها؛ ثم ألم تألف موكب رحيلهم وموكب تشريفهم وأصوات عرباتهم الأنيقة تتهادى ذاهبة وآيبة قبيل كل غروب وقبيل كل عشاء حين يعودون إلى أعمالهم العظيمة! لماذا يسكب هذا كله الليلة فى قلبها دفعة عميقة من الأسى ويطلق فى روحها نواحا

مكتوما؟! . . لماذا تحس الليلة كأن يدا ألقتها من مكان شاهق فوقعت كومة مهملة، ملقاة فى هذه العزلة التى لا يكترث بها أحد؟!

انتزعها من حديثها الصامت صدى نغم شجى يتسلل فى ثنايا الصمت ويتسرب إلى أعماقها، يلمس أوتارا بعيدة نائية، فتتململ فى قلبها الذكريات الموغلة فى القدم. . أرهفت سمعها تتبينه، إنه صوت صبى بائع، يغنى بصوته العذب، ينادى على ما يبيع. . وعاد الصوت. . وعاد. . وعاد. .

انتفضت كأنما لفحتها ريح باردة مفاجئة، واعترتها قشعريرة سرت من رأسها إلى قدميها. . يا ألله. . صوت من الحياة! من هنالك. . من بعيد. . حيث يسكن الأحياء فى الضفة الأخرى. . حيث يعيش الناس. . يبيعون ويشترون. . ويمشون فى الطرقات. . الطرقات؟ . . نعم. . هناك طرقات وبيوت، وعربات وترام، وناس، وحركة دائبة لا تستقر. . وحياة! اهتز قلبها كأنما لمسته قطرة من ندى، وانسربت ومضة حياة حزينة إلى كيانها كله. .

لم تدر لماذا ارتسم أمام عينيها ميدان «باب الحديد» الذى أسماه البغاة فى العهد الجاثم فوق صدر هذا البلد «ميدان رمسيس» حتى يعيدوا إليه لونه الفرعونى؛ بدا الميدان أمام عينيها الساهمتين واضح المعالم والقسمات والزوايا؛ الأنوار المتلألئة فى كل مكان، الشارع الكبير الممتد إلى ما لا يدرك البصر، والشوارع المتفرعة منه فى كل اتجاه، العربات الكبيرة والصغيرة تتحرك باستمرار كأنما مستها كلها نفخة حياة لا تهدأ؛ إشارات المرور تضىء وتنطفئ، تفتح عينها هذه لتغلق تلك بلا انقطاع؛ والناس تمشى، تعدو وتتحرك، من هنا ومن هناك ومن كل مكان وفى كل اتجاه. . الأصوات لا تهدأ، لا تكف، لا تخفت، كل شىء يتحرك،

كل شيء يتكلم، الأقدام، العربات، الأنوار، الطرقات، أضواء الإعلانات وأضواء الحياة!

وفي زحمة الناس والعربات وجدت نفسها هناك تعبر الطريق؛ تسير بملابسها الجميلة التي نسيتها في ظلمة الصمت، وبخطواتها السريعة الحية المتوثبة، ووجهها الواثق المطمئن ورأسها المرفوع اعتزازا بما منحها الله من استقامة على الطريق.. تركز بصرها على صورتها وسط زحمة الناس وظلت تتابعها.. أحست أن دهرا سحيقا موغلا في القدم يفصل بينها وبين تلك الفتاة؛ ونظرت إليها تتملاها في أسى كما ينظر الجد العجوز إلى صورته في مطلع صباه!

جالت ببصرها في الظلام المحيط وفي مآقيها تترقرق قطرات دمع وعلى فمها ابتسامة شاحبة لا تدرى كنهها؛ خليط عجيب من نبض مشاعر غامضة يتجول فيها روحها، يذرعها جيئة وذهابا.. لم تتذوق من قبل طعم هذا الخليط المتداخل.. هل يكون الأسى والعذاب مفعمين بالسعادة والرضاء وإشراقة الروح في الأعماق؟!.. لم تعد تميز على وجه التحقيق!

٦

قرارة الموجة

تدلف قدماها خارجة من المبنى العتيق فى الفناء الواسع فى غير تدبر، يصطدم السكون الشاسع الذى يغرق المكان بذلك الذى يفترش الساحة كلها فى الداخل ويوغل حتى الأعماق البعيدة. . داخلها. . وفى الفراغ اللا متناهى الذى تغرق فيه، تنفتح الفوهة. . فوهة القبر! . . لأول مرة تنفتح منذ نضج الوعى. . نعم. . فلقد انطوت أزمان متطاولة منذ آخر حدث؛ منذ بزغ فى عمق طفولتها ثم توارى مخلفا غبشا رقيقا. . توارى فى طيات السنين، خلف الوعى، خلف تفتح الزهر فى الربيع المورق؛ غاب فى دفقات العيش الحى المتواكب الخطى؛ وفى امتدادات الرؤى الوسنانة مع تهويمات الحلم!

كان قد غاب فى خاطرها أنه هنا؛ رابض فى طيات الخطوات، وراء كل الأنفاس ووراء نبض القلب!

فى المبنى العتيق منذ لحظات، واجهته على غير انتظار، وجها لوجه عاينته حين قال لها قريبها الفتى، وهو متهدل الكتفين تحت الثياب الرثة، وقد ساقوه إلى المكتب الكبير ليواجهوها به، حين انطلقت الكلمات من فمه زائغة متهدجة وهو يحكى مأساة اعترافاته؛ وهو يعتذر

لها عما قاله عنها بغير حقيقة؛ وهو يحكى كيف عذب ليقول ما قال؛ وهو يكشف عن حروق صدره وظهره الممزقين، واغلة فى اللحم، دوائر تلو دوائر بحجم أعقاب السجائر! . . وحين ألقى إليها بالخبر المهول . . قال والدموع تنساح فوق خديه الضامرين: «ألقوا فى وجهى بملابس «رفعت» غارقة فى الدم وقالوا: «خذ؛ فلقد مات أخوك وغدا أنت تلحق به» . . ثم أردف بعد أن التقط نفسا لاهثا: «ثم لم أره بعد ذلك وكان فى الزنزانة المقابلة لى!».

كيف انصبت الكلمات فوقها؟ . . فى سكينة غريبة انداحت كأنها خبر كل يوم! كأنها لا تعنيها هى! كأنها تنهال فى فراغ! . . كلمات كانت . . مجرد كلمات مفرغة، ضلت طريقها إلى مواقعها . . مقفلة كانت، بل محكمة القفل لا يطل منها معنى! لم يتفجر شىء من عبوتها! . . ما الذى أمسك بالفتيل؟! . . ما الذى أبطل الطاقة المدمرة؟!

أجابت فى سكينة رهيبة: «وماذا فى هذا؟ أليست الشهادة . . قمة الأمنيات؟ . . أليس هو الطريق . . طريقنا كلنا؟! . . وانساح الهدوء يلقى ظله فوق كل شىء؛ يفترش الساحة؛ يطمر الإعصار؛ يجثم فوق أسنان اللهب ويوقف سيل الدمع . .

ينبهت وجه الشيطان القابع خلف المكتب يدير دفة التحقيق؛ فتنطلق الكلمات من فيه تنفى، حارة كأنها الصدق!

والآن؟! . . تندفق الكلمات . . تتردد . . يرن صداها فى الداخل والخارج تقرع الصمت المترامى . . رفعت . . مات!! . . رفعت قتلوه فى التعذيب . . قتلوه؟! . . نعم . . ولكن . . ماذا تعنى الكلمات؟! . . تعنى . . . تعنى أنه مات!! . . أنه . . أنه مات! . . تنزلق الكلمة . . يتبعثر المحتوى وتنسلخ القشرة . . تهوى بغير قرار . .

الفراغ الفسيح، والضوء الخافت المتشعع تدفقه الأعواد السوداء المتناثرة هنا وهناك.. وهى.. والداخل والخارج.. تختلط الأشياء.. أين الحدود؟!.. لا تدرى.. لكن لا تتوقف.. تدلف تدلف.. والسائق يسرع الخطو.. تتبعه بغير وعى.. والأقدام تزحف فى الفراغ الفسيح.. إلى.. إلى أين؟!.. وتذكرت.. إلى مكمنها البعيد.. إلى الزنزانة المغلقة.. عائدة هى.. عائدة؟.. نعم ولكن.. ولكن ليس ككل مرة.. شىء ما قد تبدل فى الأعماق البعيدة.. شىء هائل.. ماذا؟.. كالزئبق لا تمسك به.. الأشياء كلها تنزلق إلى هوة.. إلى أغوار بعيدة ومترامية.. عاجزة هى عن ترتيب الأشياء.. عن المتابعة..

فجأة تراءت صورة.. شهقت دون وعى فالتفت السائق إلى الخلف وهمهم.. كانت صورة أمه؛ شقيقتها الكبرى، هناك هى، فى الزنزانة نفسها؛ منذ مرضت وعجزت عن الحركة نقلوها معها لتعولها!.. ماذا ستقول لها؟!.. فاجأها السؤال؛ هبط فوقها كصخرة هوت من قمة جبل شاهق.. يلح يلح.. يتضخم.. يملأ الفراغ.. يطوقها.. يسد المنافذ ويخترق الوعى.. ماذا ستقول لها؟! ما الذى ستحكيه هذه الليلة عن رحلتها الرهيبة؛ كما حكت فى أكثر الأمسيات قصص رحلاتها المخيفة إلى جحور الذئاب؟!.. تقول لها إن ابنك الأثير لديك.. قد مات!.. هل تحكى لها ما حكاه ابنها الفتى من قصة أخيه؟! تقول لها إنها لن تراه بعد الآن؟! إنهم قتلوه فى ميعة الصبا وفجر الشباب؛ إنهم مزقوه بالسياط، بالكلاب وأسياخ الحديد؛ ولعبة السجائر الفاحشة؟!.. تقول إن جسمه الفارع القوى قد ناء تحت أوهاق العذاب المروع؛ قد هوى تحت كى الحريق؛ تحت تهشيم العظام ونزف الدماء؟! أتقول لها إنه لن يعود

إلى دارهم أبدا . . ابنها الغائر فى قلبها، الحبيب إلى روحها، زهرة الحياة فى عيشها وفرحة الوجود فى حياتها؟! . . تقول . . ماذا تقول؟! . . وينتهى الطريق . .

لكن السؤال مايزال . . يطن، يخترق القلب، يملأ البصر، يطوق الوجود، يلدغ كوخز ذنب العقرب؛ يدفق السم ويبتلع الوعى . .

ينفتح العملاق الأسود على مصراعه فتدلف قدماها دون اختيار إلى الداخل، وللتو يبتلعها سواد الزنزانة الفارغة، ويغلق الباب . . أين؟ . . أين الأم الثكلى؟ أين الشقيقة المسكينة، الغافلة عن الخبر الحزين؟ . . لا أحد! . . تفتش عيناها فى أركان المكان، فى أغوار الظلمة، فى كتل الغبش المتراكمة . . لا أحد . . فراش واحد يجثم بجوار الحائط . . والثانى؟ . . تكنس عيناها أرض الغرفة؛ تحملق فى البقع الداكنة هنا وهناك . . كلا، لا شىء . . وحدها هى . . وحدها مع الحدث الرهيب!

قشعريرة مفزعة تكتنفها من القمة إلى القاع، تهجم عليها الوحشة من كل صوب، تمد ذراعيها من الركن الخاوى من الفراش المؤنس الذى كان . . وحدها مع الحدث الهائل . . وحدها مع الموت! . . الموت؟! . . أوحقا جاء الموت إلى بيتهم، وتجلل بيتهم بالسواد! . . أو حقا قد مات . . الصديق الحبيب والأخ والقريب؛ شعلة المرح والحياة والفتوة؛ توءم القلب ورفيق الصبا ورفيق الطريق؟ أو حقا قد مات؟! أو يستطيع القلب أن يستوعب ذلك المحال؟! . . المحال؟! هه! من قال إنه المحال والله وحده الباقى؛ وكل شىء ذاهب سواه!

. . . لكن الرجل أقسم . . أقسم الأيمان تلو الأيمان أنه هنا؛ أنه سالم يعيش؛ وأنها حكاية مفتراه دبجها العسكر ليرهبوا أخاه . . فقط ليرهبوا أخاه! . . لما تغلق أبواب الرجاء؟!

فى حاجة إلى لحظات راحة تلم بها شعث الأفكار، إلى ساعة هدوء تناقش فيها ما كان، تسترجع فيها الكلمات، كل الكلمات، ولمحات الأعين ونبضات القلوب فى الصدور تطل من بين القسمات! . . تتبين فى ثناياها الحقيقة! . . الحقيقة الهائلة! . . موت أو حياة لعزيز غائر فى أعماق العمر وأغوار القلب . . أين ذهب عنها ذلك الهدوء الواسع الذى انبعث من أعماقها هناك فغشى الساحة؟! كيف تبددت السكينة الندية التى حطت هناك فظللت الأغوار وغطت امتداد الأفق؟!

استوت جالسة فى الفراش تستمطر الراحة! . . الراحة؟! . . أنى لها ذلك والبركان قد بدأ يمور فى الأغوار؛ وأصوات العذاب تنبح خلف الجدار؛ والصقيع يحط فوقها وفوق كل شىء ويخترق العظم . . لو كانت تستطيع أن تغلق الطاقة فى أعلى الجدار! منها يتدفق الصقيع كله، فوق قلبها وفوق جسدها الواهن؛ ومنها ينهال سوط العذاب فى الجرح المفتوح متحدرا من الساحة الدامية . . ترى لماذا لم يصل إلى أذنيها صوته الصارخ بألم العذاب حتى خفت؛ كالكثيرين غيره! . . فلكم شيع قلبها جنائز الأعزاء وهم يلفظون آخر الأنفاس من خلال هذه الطاقة النكداء . . أم إنه آثر الصمت أيضا حتى قضى؛ كما فعل على صفحات اعترافاته التى رأتها . . فارغة كانت بغير كلمة واحدة إلا من الاسم والعنوان وتاريخ المولد! . . لو سمعت صوته، الواغل فى قلبها لعرفته، لميزته من بين مئات الأصوات، ولكانت ودعته قبل الرحيل . .

الرحيل؟! . . وهل آن الرحيل حقا؟! ودهم حياتهم وهم هكذا شتات مشردون . . بغير نظرة وداع، بغير كلمة يضم عليها القلب شغافه، تضىء مسيرة الذكر . . آه لو تكف الآهات الآتية من خلف الجدار! . . الآهات المكروبة تتلاحق . . تخترق الجرح الحى النازف بالدم الجديد . .

بكل قواها تكتم أنفاسها حتى لا تنطلق الصرخة . . لو تنغلق الليلة طاقة الجحيم هذه! فما لقلبها الجريح من قوة هذه الليلة؛ والصراخ الدامى يسحق القوى ويمزق نياط القلب . .

ولكن . . لماذا يوغل قلبها بالسواد؛ لماذا يرهص بالحدث المروع؟! . . لقد كان صوته حارا يوحى بالصدق، ذلك الرجل، وهو يقسم بمقدساته كلها أن رفعت سالم معافى . . لماذا لا يستطيع قلبها أن يذعن لقسمه المغلظ؟ . . كلهم كذابون . . نعم، ولكن . . ألا يكون كالشيطان الذى قال عنه الرسول الكريم لصحابته : «صدقك وهو كذوب»!

كانت وهى تستمع لأيمانه المغلظة تتمنى أن تتصيد فى عينيه نبرة صدق، وكان قلبها يتلهف، وهى تتفرس فى قسمات وجهه أن تلقى لمحة واحدة ترد الطمأنينة إلى قلبها، ولكن قلبها ارتد كسيرا تائها فى عذابات الشكوك . . كان وجهه مصمتا لا ينبض بحياة! . . ترى إلى أين تنداح الموجة الحائرة؛ وأين يحط السفين؟!

وحدها فى الظلمة القارسة بلا معين، بلا أنيس أو رفيق؛ كيف تصد عنها جحافل الفكر وجيوش الذكريات! . . لو كان معها إنسان . . إنسان واحد من أحبائها . . لو أبقوا لها شقيقتها؛ لو شاطرها أحد حمل هذا الوافد الجديد الرهيب؛ لربما كانا معا يستنبطان الحقيقة، يقلبان معا ما دار هناك، يحللان الألفاظ لفظة لفظة ويعتصران الكلمات! . . ولكانتا ملأتا فراغ اللحظات القاتل بالحديث . . الحديث فى أى شىء . . عن أى شىء، حتى عن الحدث المفجع . . حتى عن الموت . .

وحدها تجتر، تمضغ الآلام ومرارة الذكريات؛ وحدها تتجرع الغصص وتلعق الدماء! وحدها بكل ضعفها، بكل جوعها وصقيعها

وآلام الهزال المروع فى جسدها، وقد استنفد الشياطين كل القوى المذخورة فيه حتى أنذرهم طبيبهم أن يكفوا إن كانوا لا يريدون لها الموت!

رفعت عينيها تتطلع إلى السماء! . . أين السماء! . . أين السماء، والسقف المطبق الصفيق يصد البصر ويصفع القلب! . . لو تخرج لحظات من تحته؛ من الجدران الأربع والباب المسدود؛ لو تستطيع أن تمد بصرها إلى السماء فيتسرب الضياء إلى قلبها؛ لو يخترق قلبها جحافل الظلام تطوقه وتحط فوقه؛ لو يكف الله برحمته عنها جيش الحديث الزاحف من داخلها؛ لو يمسح بيده الرحيمة على ألسنة اللهب فتغدو سلاما وبردا ويبقى الرضاء الراضى الرابض فى الأغوار من وراء زفرات الحريق . . يوقن أعماق القلب أن الكل من الله . . وإليه . .

. . . حدقت عيناها بكل بصرها فى الظلام الكاسى تحاول اختراق الحجب؛ . . ترى أيعلم الله منها أنها، بكل ضعفها، كفء لحمل حملها الجديد الرهيب! لكم تخشى أن تنوء به . . أن تسقط فى منتصف الطريق؛ أن لا يطيق جسدها الواهن هذا الحمل الثقيل فتطلب العون من الكافرين . . فذلك هو الخسران المبين!

ارتدت الكلمات إلى أعماقها تنبش الذكريات . . نقاشاتهم الثرية هناك، والجمع المفعم بالحياة، المتوثب للعمل والجهاد، المتسلح بالوعى السامق، ينظر إلى النور يتلألأ على الأفق، يرقب المستقبل بعين ملؤها الرجاء واليقين . . تبرز أمام عينيها صورة الصلاة معه . . يرتل القرآن بالخشوع البديع يهز القلب فيقشعر البدن وينهمر الدمع . . هناك كانا معا فى قرارة الأمن فى عيشهما الوثير منذ الصبا المبكر فى البيت الكبير يضم أجيال العائلة على الحب الرائق . . هناك، رغم رغد العيش؛ رغم ثوب الأمن الكاسى، كان قلبها يرتج فرقا، حين يتهدج ذلك الصوت الخاشع

يرتل : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ . . كانت تبكى خوفا أن يصيبها ذلك فى يوم بعيد! . . هل كان ذلك إرهاصا بما تواجه اليوم، وهى تعرف فى قلبها مواطن الضعف المخيف! . . يا ألله . . ما أشق المرور سالمين فى دنيانا!

الصورة . . صورته متوجها إلى قبلته يقيم الصلاة تجابهها شاخصة أمام عينيها فتنطلق منها صرخة بغير وعى : «رفعت»!! ثم ترتد مذعورة . . أين رفعت؟! . . أو حقا قد . . اختنقت فى فمها الكلمة . . لكنها تفجرت فى مخيلتها! . . أو حقا هى هذه صورته الآن؟!

ما أبعد الشقة بين الموت والحياة . . ثم ما أبعدها بين الكلمة والحقيقة . . كلمة «الموت» . . وحقيقة الموت . . الخيال لا يكف . . يعذب ذرات قلبها؛ لحظة وراء لحظة يتتبع الصور منساقا مشدودا بغير إرادة . . صورة الموت . . وما بعد الموت . . يتحشرج صوتها بهدير الدمع : «ما عاد يؤلمك تعذيب بعد أيها الحبيب . . !!» .

الموت . . كان فى حياتها كلمة؛ مرهوبة الكلمة حتى الأعماق . . لكنها كلمة! . . كلمة حق لها كل قداستها . . لكن حقيقتها! . . كانت جد بعيد! كانت تظن أنها عرفت! . . عاشت حقائق الحياة والموت وهى تقرأ عنه ما جاء به علم الغيب، لا تشك ذرة فيما قاله الله ورسوله . . لكن . . كم كانت تجهل . . تجهل كل حقيقة الموت . . الآن تراه . . تراه هو ذاته . . تلمس جثمانه، تحتضن حقيقته الكبرى، لا بضعة أحرف!

والموت . . كان حدثا هائلا عبر فى دنياها الصغيرة مرة ثم انطوى . . بغير عودة؟! . . كلا، فما يقول ذلك عاقل! . . ولكن . . كأنما هو كذلك!

والموت. . كان فى حسها أمرا واقعا. . واقع كل يوم. . واقع كل لحظة. . نعم. . ولكنه. . ولكنه عند الآخرين!. . اليوم. . اليوم هو هنا؛ عندهم؛ فى بيتهم؛ فى أعماق وجودهم؛. . اليوم هو شىء آخر بالمرة؛ شىء لا تستطيع وصفه كلمة، ولا مائة كلمة؛ ولا كل الكلام فى كل اللغات!. . اللظى؟! الحريق؟! الأسى والحزن؟!. . كلمات، كلها كلمات؛ أما هو. . أما الموت فشىء آخر. . إعصار مروع يمضغ القلب؛ ينزع اللحم الحى عن العظم اللاصق؛ يحيل الدم حريقا؛ يجفف الماء فى العروق!. . لا. . لا تسعفها الكلمات؛ فكلها كلمات. . الموت هو الموت. . ولا كلمة سواه!

الموت. . ورفعت. . كيف التقيا؟!. . كيف تضم الصورتين؟!. . كيف تجمع بين الكلمتين؟!. . كيف تتجاور الأولى مع الثانية على صفحة ورقة؟!. . الصمت، السكون المطبق، البرد والفناء. . كيف. . مع تدفق الحياة حارة فارهة فى كل ذرة. . فى نضارة الوجه، فى الجسم الفارع، فى القسمات، فى البسمة المشرقة، فى النشاط المتدفق بالحركة وبالمنى الطافرة. . سبحان الذى خلق الموت والحياة. . تعنو له الجباه طوعا. . وكرها. . سبحان الذى يقدر وحده. . ويبقى وحده. .

ولكن. . كيف تستطيع أن تتخيل؟!. . بل كيف تستطيع أن توقف الخيال، كيف تكف الصور أن تتخبط بين الواقع والخيال. . أن تغرس أنيابها السود فى مضغة القلب والدم واللحم والعظام؟!. . كيف تكف الخيال أن ينبش الذكرى، وينبش باطن الأرض!. . أن يستعرض الصور فوق وتحت!. . أن يوغل فى الحريق؟!. . أفلا تكف فقد تدركها الرحمة الكبرى فيكون الرجل صادقا؛ وقد يأتيها الخبر اليقين يحمل البشرى بعد حين. .

ترى ماذا تستطيع أن تفعل لتستيقن . . فما أشق التأرجح بين الحياة والموت! . . تسأل؟ . . لكن من تسأل؛ وهى لا ترى غير الحارس الكنود، والوجوه المنكرة هناك فى مجازر التحقيق ، ثم وجه الوحش الضارى يسوقها إليهم؛ يحمل وجهه قسمات النمر الجائع . . من من هؤلاء يحمل قلب إنسان يستشعر لهفة قلبها المحترق؟!

لكن لماذا لا تصبر؟! . . لكم تحدثت إلى صويحباتها عن الجهاد فى سبيل الله؛ ولكم حدثتهن عن الصبر الجميل، ولكم تمنت على الله جزاء المجاهدين الصابرين وهى تقرأ الآيات ترفع قدرهم فوق الجميع عند خالقهم . . لكم ولكم . . لماذا إذن يجتاحها الحريق . . لماذا تلذعها الكلمة لذع النار، لكن فى شغاف القلب . . أين السكينة الندية التى كانت تملأ الروح حين تلقت الخبر أول مرة، لماذا تشعثت وحل محلها لهيب البركان يتوثب فى غور القلب . . ثم لماذا لا تأنس للرجاء فى فضل الله، وهو يعلم ضعفها ووحدتها، وهو يعلم أنها لم تكتمل بعد فيرفع عنها البلاء؛ ولو إلى حين! . . ولو هذه المرة! . . فما يزال أمل النجاة يلوح . . ولو من بعيد! . . أفلا تصمد للعاصفة حتى تمر . . فقد تمر! . . أفلا تصمد والعدو يحيط بها فى كل وقت، ويدهمها من كل صوب! . . هل نسيت أنهم جميعا فى لجة المعركة الضارية، والعدو متربص بهم فى كل فج يترقب فيهم ضعفا وينتظر لحظة السقوط! . . هل تنسى شماتة أعينهم وكلماتهم حين رأوا انهيار صحتها وهزال جسمها المخيف!

لكن الذكريات تطفو لا يقنعها المنطق ولا تكفها كلمات العقل . . ولكن الصور تتواثب يرتطم آخرها بأولها . . هناك فى حديقة الدار الواسعة حين كانا غرين يلهوان، يتصيدان الفراشات البديعات الرسم،

ثم يرق لها قلباهما فيطلقانها رحمة وحبا، والدنيا رائقة البسمة والعمر الغر لاه عما تخبئ الليالى والأيام! . . ملامح وجهه الودود تنخر فى أعماقها البعيدة لا يملك شيءأن يمحوها، وهما ذاهبان آيبان بين أرجاء الحديقة الغناء وحجرة المخبز فى آخر ركن منها قبيل العيد، حين كان فى حياتهم العيد؛ ينقلان الوقود ويحملان صفوف الكعك الناضج إلى داخل الدار . . صوته المرح يرن فى أذنيها لا يكفه الحدث الهائل الذى ألصق به! . . أو حقا كان ذلك . . وكان ذاك! . . لم يكن شيء يكفه عن المزاح، عن الفكاهة الآسرة، عن إشراقة القلب بالأمل؛ بالمستقبل الوضيء، فهل كفه ذلك الطارق الجديد . . الغريب!

عميق فى قلبها موغل فى حياتها . . كيف تتحمل الطعنة؛ وحدها بغير معين، بغير مواس! . . ملامحه المنبسطة بالرضاء، العميقة الصفاء كأنما استلت منها كل أدران الأرض وعتامتها، لكم تخيفها الآن، ولكم أخافتها من قبل؛ فما يكون مثل هذا الصفاء لعيش على هذه الأرض مديد . . يهجس بذلك قلبها منذ بعيد . . لا تنسى تلك الليلة التى سمعت فيها اسمه ينادى إلى الساحة الدامية؛ حينها خفق قلبها خفقة مفزوعة؛ فحتى ذلك الحين لم تكن تدرى أن الشياطين قد ساقوه بعدها إلى هذا الجحيم . . وقتها انتفضت واقفة تتسمع، وتسمرت قدماها فى المكان، ثم ما لبثت أن هوت إلى الأرض وألقت برأسها بين ركبتيها فى غم ثقيل . . لماذا أفزعها ذلك وهو الحدث العادى البسيط بالنسبة لهم، وهو الشاب المؤمن القوى الذى لا يخشى عليه من فتنة العذاب! . . وقتها عاتبت قلبها طويلا أن يضن به وهو فى عنفوان قواه، والساحة تموج بالضعاف، بالشيوخ فى أواخر أعمارهم وبالنساء! هل كان ذلك إرهاصا بأقدار الله؟! .

انسرب خيالها على الرغم منها إلى البيت البعيد. . ترى هل بقى فى الدار أحد؟ هل أعلنهم المجرمون بالحدث؟ كيف سوف يتلقون خبر هذا الحدث المروع حين يصلهم؟ . . عشرات الصور تموج أمام عينيها. . لا تخلو صورة منه. . ملء الحياة هو فى هذه الدار. . حتى هذا الخبر المفجع تراه هناك يتلقاه مع الجمع! . . لماذا كان مكانه هكذا. . وكيف يظل شاغرا منه كالهوة السحيقة تنزلق فيها الأقدام وتضيع! . . هل شغل هذه المساحة الهائلة ليبقى بقعة حريق تأكل القلب! كل شىء فى الدار يذكرها به، حتى طريقته الخاصة فى إغلاق باب حجرته حين تحتويه فى آخر الليل بعد أن يتم استذكار دروسه ويصعد! . . كيف تستطيع أن نعود. . إذا لم يعد؟!

ترى ينطوى هذا الكابوس المفزع كما انطوى قبله الكثير من المخاوف حوله، الواحدة تلو الأخرى، ثم عاد إليهم سالما؟! . . أتراه هذه المرة أيضا يعود؟ . . هل يكون صادقا ذلك الرجل حين أقسم الأيمان تلو الأيمان، فتعود إشراقة الرجاء إلى البيت المبتلى!

. . . كانت رحمة الله بهم واسعة، قبل شهور قلائل، حين كانوا على شاطئ البحر وقد اعتزلوا فسق الأجساد العارية إلى شاطئ بعيد؛ حين ألقى بنفسه إلى الماء فإذا دوامة هائلة تلقى به بعيدا بعيدا، فى ملتقى البحرين حيث يهلك السباح الماهر، وحيث تتجمع أسماك القرش النهمة. . ثم أعاده الله إليهم بعد ساعات يأس ظلوم، بعد أن ضل الرجاء فى كل فج، وبعد أن هلعت القلوب وغامت العيون بشبح الموت المرتقب. . هل يرده إليهم هذه المرة أيضا؟ . . أم إنه كان النذير. . كان تمهيدا لقدر الله الكائن فى غيبه القريب؟! . . واها لهذا القلب تمزقه الشكوك؛ تنهكه أرجوحة العذاب بين اليأس والرجاء؛ لو يستقر. . لو يركن إلى يقين. . لو ترسو الموجة الحائرة وتطمئن السفين؟! . .

وجهه الحبيب، الغائر فى أيامها يدهمها اللحظة؛ يتراءى فى مكانه المختار من البهو الصغير على أريكته المفضلة؛ مفعما بالحياة ما يزال؛ هل يمكن أن ينطفىء؟! هل يمكن أن يكون مسبل السكون تحت التراب؟! هل يستطيع قلبها آن يلاحق الصور؟! حين تغمض العينان السابحتان فى البشر؛ حين يسكن الصوت الهادر بالود وبالحب لكل شىء ولكل أحد؛ وحين تغلق الحجرة الملأى بأشيائه، أشياء الحياة.. على فراغ؟!

اكتنفتها قشعريرة هائلة، تركزت عيناها على آخر صورة له قبل الفراق.. فى البهو الكبير ليلة الرحيل.. الزبانية الصغار هناك يقتادونها إلى هذا الجحيم، يصدرون الأمر المتعجرف بعد الأمر ويفعلون بالدار ما يشتهون!.. كان هناك هو واقفا كأسد جريح! لن تنسى ملامحه المقهورة الغارقة فى العذاب.. مكتوف اليدين، مجردا من كل سلاح، عاجزا عن كل دفاع، بيته وأسرته وشرفه؛ وهو الصعيدى حار الدماء.. كانت لحظات مريرة تضغط على قلبها كالقبضة العاتية، نسيت وقتها نفسها، كل شىء عنها، نسيت الهول الذى يمارس لأول مرة، لا فى حياة هذا البيت وحده، ولكن فى حياة هذا البلد المسكين كله! ونسيت المجهول الرهيب المترقب وراء اللحظات، شىء واحد أطبق على روحها حينذاك وتغلغل مريرا حتى أعماقها، ذلك هو ملامح هذا الوجه الحبيب، المغلوب على أمره يعتصره غليان ألم ثائر رهيب.. ترى أين هو الآن؟.. ترى أتعود فتراه.. أم إنه كان فى دنياهما اللقاء الأخير؟!

يغمرها دوار لم تعهده رغم الانهيار الصحى الذى يشملها منذ فترة طويلة.. تحس أن قلبها يرتج فى صدرها ثم يهوى هابطا كأنما يغوص فى

فراغ سحيق، رأسها تحول إلى مئات عروق تنبض بقوة. . تحس شيئا حارا يوشك أن يتقاطر من أنفها. . قامت من جلستها تخطو نحو الباب الموصد بخطوات غير متزنة. . تدق الباب ثم تهوى خلفه. .

حين أفاقت وجدت نفسها فى فراشها الفقير بجوار الجدار؛ أمامها كان رجل يجلس القرفصاء ويسلط ضوءا خافتا فى يده على مقياس الضغط حول ذراعها. . قالت وهى فى نصف وعى: «أعرف أن ضغطى دائما منخفض بعض الشيء». . أجابها الرجل: «ولكنى أراه عكس ذلك تماما؛ هل حدث جديد؟. . هل ذهبت اليوم إلى المكاتب؟!» قالت فى صوت متقطع: «نعم. . وهناك عرفت خبرا أزعجنى. . عرفت أن رفعت. . ابن شقيقتى، وهو أخى فى الرضاع، وصديق عمرى كله. . عرفت أنه استشهد!».

سحب الرجل جهازه فى حركة لم تفهمها ثم قال: «كلا. . لم يستشهد». . تدفق الدم إلى رأسها، أحست بالوهج يلف وجهها وأذنيها وانتفضت جالسة وهى تهتف بصوت متهدج: «حقا؟. . حقا يادكتور. . رفعت سالم يعيش؟!».

قاطعها صوته، خشنا قاسيا جافا كأنما يتفجر من عرصات جهنم: «كلا. . لم يستشهد ولكنه مات كما يموت كل الكلاب!. . ودفن فى الصحراء كما دفنت كل الكلاب مثله!».

الدم يتدفق حارا تحس حركته فى كل عرق؛ قوة طافحة تندفق فى كيانها، تصعد وتصعد وتسرى فى كل ذرة. . فى غير تدبير سابق، ولا فكرة مسبقة ولا قرار، تجد يدها ترتفع ثم تهوى على وجه الرجل الجالس القرفصاء أمامها فيختل توازنه لحظة ثم يتمالك ثم ينتفض واقفا؛ وفى غير

وعى تجد نفسها واقفة قبالته فى تحفز وثبات . . تنطلق الكلمات من فمها فى جمل قصيرة هادئة سلسة كأنها تلقى حديثا معدا من قبل : «الكلاب ليسوا نحن، بل أنتم يا جزارى السلطة . . الكلاب هم الذين يسبون دين الله ليل نهار ويعذبون أولياءه، الكلاب هم الذين مزقوا كتاب الله وداسوه بالأقدام؛ الكلاب هم من باعوا آخرتهم بدنيا سيدهم، وما أبأس من باع آخرته بدنيا غيره! غدا سوف تعلمون من هم الكلاب، وغدا سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . . اخرج من هنا . . لا ترنى وجهك مرة أخرى . . !!» .

بقى الرجل برهة قصيرة مذعورا ولم ينبس بكلمة . . تراجعت قامته المديدة المدثرة بالحلة الصفراء خطوات إلى الخلف، ثم أسرع خارجا من الحجرة فى خطو مضطرب، وفى سرعة أغلق الباب!

ظلت فى مكانها مسمرة القدمين تحدق فى لا شىء فتصد عينيها الظلمات المتكاثفة فى جو الحجرة . . ها قد جاءها الخبر اليقين . . الحزين . . ها هى الموجة الحائرة تستقر، ويرسو السفين! . . ها هى الكلمات التى حملتها فى قلبها زمنا فى حماس مشرق، تتجسد وتحط فى واقعها حملها الثقيل الرهيب؛ فهل تراها أهلا لما كانت تقول؟! . . ما أعظم مسئولية الكلمة، وما أشد ثقلها حين تكون عهدا مع الله! . . الجهاد . . الشهادة . . الموت فى سبيل الله . . ها هو، قد جاء، كما يريده الله، عمل، واقع محقق لا كلمات . . فما أثقل الواقع وما كان أخف الكلمات! . . أو ما كانت تدرى ماذا تعنى الكلمات . . مع الله؟ . . أو ما كانت تعرف أنها البذل . . مما تحبون . . من خير ما تحبون!

ما الذى يحزنها؟! ما الذى عليه تخاف؟! ما هى الحياة، وقد ضاع فى

هذا البلد المسكين كل معنى للحياة! . . أهذا الذى يعيشه الناس فى هذه الأرض المقهورة أنفاسها . . حياة؟! هذا الذل، الخوف . . هذا الضعف والخور والجبن الخانع؛ هذا الرضاء بالضياع، بالقهر، بغضب الله . . أهو الحياة؟! . . لأى شىء يعيش الإنسان فى هذا الزمن الضائع؟ . . لأنفاس تتردد ولقيمات تلاك؟ماذا لو غادر هذا العيش الرخيص، ماذا لو رفض أن يباع كالعبيد، أن يباح دينه وعرضه، وأهله وأرضه لأعداء الله . . ثم غادر الحياة . . هذه الحياة؟! ماذا يخسر الإنسان حين يشترى الذى هناك بالخشاش! . . ما أبعد الشقة بين مفهومنا للموت والحياة وبين حقيقة الموت وحقيقة الحياة!

استشهد رفعت؛ . . نعم . . هو حى إذن بفضل الله وكما وعدنا سبحانه . . إنها الشهادة إن شاء الله، يرضى بها وينعم، رغم أنف ذلك الحيوان المدثر فى البدلة الصفراء . . ولسوف تأخذ إليه طريقها بعد حين . . من يدرى فقد تكون غدا أو بعدغد . . أو تكون الليلة؛ فلن يتركها الزبانية تقول ما قالت دون حساب! . . لعل الله أن يكون قد رضى، حين أعلنت كلمة حق بغير خوف، بغير إكبار للباطل وما تملك يداه من أدوات العذاب!

متى؟ . . متى يستوى الموت فى القلب مع الحياة؟! . . متى تنطلق كلمة الحق تعلن عن حقيقتها بغير خوف؟! عندها ينتصر الحق؛ يرفع رايته ويعلو فى الأرض! . . متى يعرف المسلمون أنهم فقدوا الحياة حين أحبوا الحياة . . حين كرهوا الموت كتب عليهم الموت! . . متى تنفخ الروح من جديد فى الغثاء؟! الغثاء الذى أنبأ به رسول الله، يكره الموت ويحب الحياة؟!

لابد من شهداء . . لابد من دماء تندفع حارة ثائرة فى قلب الغثاء؛ وها قد رفع لنا شهيدنا راية الدماء، فلنحملها ونسر حتى تنبثق الحياة فى عروق الخوف وينبت العشب فى أودية الضياع . .

تبكى . . تتدفق الدموع غزيرة، وتنساح تغرق الوجه الضامر الحزين . . لماذا تبكى؟ وقد اهتدت إلى الطريق، وقد سكن عواء الريح فى القلب المحتسب وهدأ شواظ الحريق، واستروح الروح الحائر نفحة الرضاء بالقضاء! . . لماذا تبكى وقد عرفت المسار، ونجحت فى الاختبار، وقد استقرت الموجة الحائرة إلى قرار!

تجلس؟! . . كلا، بل تقوم إلى صلاة ، فى انتظار ما يقدره الله . . تيممت ثم توجهت إلى القبلة . . بأعماق بعيدة تستشعر معنى القبلة؛ تحس أن شيئا يولد فى الأعماق، فى كيانها كله . . جديدا، هائلا، عملاقا . . يتفتح كزهرة يانعة، كثمرة حلوة توشك أن تدخل زمن النضج . . لو تحصل على كتاب الله؛ لو تقرؤه مرات ومرات!

القبلة ليست توجها إلى مكان، إنها توجه واسع المدى بعيد الأغوار، إلى عالم كامل، إلى طريق محدد، إلى هدف واضح، إلى مهمة سامقة وتكليف علوى . . إلى الله . .

استغرقت فى صلاة . . ليست وحدها . . الأنس يعمر المكان . . صوتها يرتل الآيات فينسرب الجلال يحيطها وينفذ فى الأعماق . . تطرب للصوت البديع بالترتيل؛ ولم تكن تحسن الترتيل ! تحسه يأتيها من بعيد، من فوق؛ يخترق الحجب؛ يحطم السدود . . يبرق فى قلبها سوار كسرى!!

خلف النافذة المفتوحة فى أعلى الجدار يجلجل صوت النمر الجائع . .

يخفق قلبها خفقة عالية على الرغم منها . . هاقد حانت الساعة الفاصلة . . جاء الرجل الرهيب يقتادها إلى الزبانية . . لن يتركها الله وحدها لسوف تصمد بعونه . . من يدرى فلعل الله أن يكتب لها برفعت لقاء!! . .

يتقدم وقع الأقدام الثقيلة . . ينفتح الباب الخارجى فى عنف ويصطك بالجدار . . الأقدام تدك الأرض دكا ثقيلا يحمل نبرة الغضب . .

جاء دور السجود . . تسجد . . تستغرق وهى تردد التسبيح . . تستغرق حتى تكاد تغيب عما حولها . . يتحرك مزلاج الباب فى صرخة مخيفة ويندفق ضوء الممر إلى الداخل . . يطل العملاق الوحشى برأسه هنيهة . . ساجدة هى؛ ساجدة بكل كيانها؛ ذائبة فى السجود . . ينسحب الرجل خطوة ويسحب فى يده الباب فيتوارى الضوء إلا بصيصا . . يهمهم فى نبرة فقدت ضراوتها : «أكملى صلاتك يا بنية . . سأعود بعد قليل . . . »!

٧

خطوات فى أدغال الشوك

تدافع خطوها على أرض الغـــرفـــة دون ترتيب، كـــادت ترتطم بالجدار المقابل؛ أيد، لا تدرى كم تتقاذفها فى الطريق بين مكتب التحقيق وزنزانتها القريبة؛ تقذف بها الأيدى إلى داخل الزنزانة فلا تملك ضبط خطواتها. . ثم ما يلبث الباب الأسود العملاق أن يغلق، محدثا أنينا مفزعا اعتادته أذناها. .

تقف لتسترد أنفاسها اللاهثة. . يكتنفها دوار ويتغبش أمام بصرها الضوء فى فراغ الزنزانة كأنما يتلاشى من عينيها الإبصار. . تفزع وتسترد بعض الوعى. . تحملق بكل قدرة عينيها فى جو الغرفة. . تتراجع خطوات صوب الفراش المنكمش بجوار الحائط، وتنحط عليه. .

عليها أن تهدأ، أن تراجع ملحمة الدقائق التى انطوت منذ لحظات، فالأمر خطير؛ لا تدرى على وجه التحديد نتائجه، بل لا تدرى كيف بدأ، كيف سار فى ذلك المجرى؛ لماذا أفلت منها الزمام؟ لا تدرى ما الذى انتابها فاندفعت إلى بؤرة الخطر وألقت بنفسها بين أنياب الضباع!

شهور طويلة انطوت فى عيشها هنا بين غيلان هذه الصحارى، ظلت

خلالها رابطة الجأش، تعرف عندهم بالتعقل، بالحكمة، بالمستوى الرفيع الذى يضبط كل قولة، بالقدرة الهائلة على الاحتمال الصامت والصبر السامق. . لا تشكو أبدا، لا تتململ. . حتى حين تلقت ذلك الخبر الساحق منذ أسابيع ظلت هادئة المظهر، رابطة الجأش، تغلفها هالات سكينة. .

عرضوا عليها إغراءات شتى حتى لا تذكر ذلك الحادث المفجع حتى لا تنطق أمامهم اسم «رفعت» ولا تجادلهم فى أمره! . . إغراءات تبدو فى هذا الجب نهاية المنى: طعام من عند «جروبى»؛ سرير فى الحجرة وفراش نظيف؛ نور فى الزنزانة ينقذها من أحراش الظلمة! . . رفضت كل عروض القتلة فى أدب جم؛ قالت بهدوء متجمل: «لا أحتاج إلى شىء، إنى فى أحسن حال»! . . طلبت شيئا واحدا حين ألحوا؛ ما طلبت غير كتاب الله!

ما الذى هيج كل الراسب فى القاع؛ ما الذى أزال الغطاء عن فوهة البركان الثائر فى الداخل، فاندفعت حمم الثورة تهزأ بالعقل وبالحكمة، وتطيح بأغشية الصبر؟!

الوجه المتهدل، الأنف المتهاوى فوق الشفتين، والذقن المتراخى فى عجز تحت الفك البارز، واللون الباهت كلون الموت. . فاجأها، خلخل منها القلب، روع فى الأعماق وجودا حيا يتغلغل فى أغوار العمر وأعماق الزمن منذ فتحت عينيها على الوجود. .

لحظات ذهول مرت وهى هناك أمامه لا تدرى كيف. . أتراه هو؟ . . أتراه أخاها؟! . . كلا، لا يمكن. . هذا الكيان المتهدم، هذا الوجه المتغضن؛ هذا العبث الفاجر البادى فى كل «الإنسان»؛ فى الرأس المجذوذ الشعر كجمجمة الموتى؛ واللحية المتهدلة فوق الصدر، تتشابك

فيها الأطراف بغير نظام، فى الجسد الضامر تحت الثوب الفضفاض، وعظام الصدر البارزة كصرعى الجوع فى مستعمرات إفريقيا، والسروال المطوى يجرجر فوق الأرض! . . أهذا هو؟! شقيقها الحبيب؛ ذو الوجه الصبوح الساطع بالبشر، المتفجر بالحسن الرائق فى القسمات، واللون المتوهج بالنور تطفر فيه وضاءة الحياة؟!

«التعذيب» . . نعم . . هذا الوحش الضارى . . هذا الشبح الأسود! . . الكلمة تتضخم تتضخم حتى تغطى الساحة؛ وهلا غطت من قبل الساحة كل دقيقة؛ هل يوجد فى متاهة هذا الجب الفاحش غير التعذيب؟! . . كالغول تملأ رهبته الحس؛ يحجب دقة الموقف عن عينيها؛ يتبدى تنينا يبتلع الأعمار، والأجساد، والقسمات وكرامات الخلق، لا يبقى شيئا . . يسحق سمة الإنسان فى ذرات الإنسان! . . هل يبقى دوما مسلطا عليهم؟! على الجموع التى تصلى أتونه ليل نهار؟! . . آمنا يحميه الصمت . . تمد «الحكمة» فى أجله ويسمنه الصبر؟! ويظلون صامتين صابرين، يبدون رضاء باسم الصبر، باسم الثبات، باسم المقاومة؟! وماذا يضير الفجرة من ثبات عاجز، من صبر مستسلم؛ يرضى يرضى؛ بكل شىء يرضى، وكلما ازدادوا فجورا يرضى؟!

مذهولة، ظلت تتفرس فيه، لا تملك أن تستيقن، لم تبق منه ملامح . . إن كان هو! . . حقا لا تدرى إن كان هو؛ فالآخر مثله؛ والآخر والآخر؛ لا يفترق سمت عن سمت؛ ولا وجه عن وجه! أطاح العذاب الفاجر بخصوصية الملامح، كأنما أفرزتهم كلهم آلة واحدة!

ظلال باهتة تتذكرها بصعوبة، لمحة بسمة ارتسمت فى صفحة هذا الوجه المتهدم، كالشارة فوق الأطلال، لقصر شامخ دكته هزة زلزال

عات . . لكن بسمته تتجه إليها . . إذن ليس غريبا عنها . . بسمته تحمل قلبه ، تحمل قربه . .

كل ما تخيلت فى فزعها أن يكونه ، كل صورة رسمتها له فى مخيلتها بعد المجزرة . . المجزرة التى تعرف جيدا كيف تخاض ، كانت شيئا آخر ، عجزت رغم ضراوة ما شهدت من تعذيب أن تصل إلى هذا السمت . . عباقرة هم فى آفاق ضراوتهم؛ يحسدهم حتى أشرس وحش فى الغابة . . ما أبشعهم . . لكن ، كيف أنجزوا ذلك كله فى بضعة شهور؟ !

اندلعت فى قلبها مأساة حياتهم . . كلا بل مأساة ألوف وألوف متراصة كذبائح فى مسلخ . . لماذا يرضون؟ ! لماذا يسكتون؟لماذا لا يدمرون كل شىء فى غابة الوحوش ثم يرحلون . . إلى أى مكان فى الأرض . . إلى ما عند الله . . كرماء على أنفسهم وعلى الله؟ !

إعصار هائج يكتسح الساحة فى داخلها لا تمسك زمامه . . موقف الشقيق أسيرا تحت أيدى الطغاة ، لا يملك حركة ، لا يملك كلمة ، لا يملك أن يدفع عن نفسه أو عنها شيئا ، يرفع الغطاء عن فوهة البركان . . ينزع الفتيل فينفجر الإعصار . . هو فى قلبها كبير شاهق . . لا تطيق . . كلا لا تطيق ، لا تملك أن تصمت ، لا تملك أن ترضى !

عانت هى فى هذا الجب الوحشى ضعف الأسر وذل القهر ، وعرك قلبها مرارته ؛ لكن ذلك تحتمله ؛ فهى على أى حال بنية صغيرة وهم وحوش ! . أما شقيقها الذى تجله ، وتعرف فى أعماق روحها قدره ، وأما هذا الهوان أمام عينيها ، فلا . . لا تملك أن تطيقه . . لا تحتمله !

ودت لو تصرخ تصرخ، تزلزل قلب الوجود؛ تنهش فى أحشاء هذا العالم المتعفن ضميرا قذرا طمرته الأوساخ. . داهمتها فجأة صورة الوجوه اللئيمة، والأعين المفعمة بالشماتة، الآتية إليهم من العالم «الحر»! تلك التى طافت عليهم قبل أيام قلائل، لتقرر أن «حقوق الإنسان» مرعية حتى قمتها فى هذا الوكر! . . القرن العشرون؛ قرن الكفر العاتى قذفته رياح شمال ناقعة الحقد. . قرن الظلم الأغبر. . قرن وحوش الغاب المنتصرة. .

ترفع بصرها نحوه. . تحدق فى قسماته. . لو تندفع إليه تطوق بذراعيها هيكله الشاحب، تغمر أطلال الوجه الباهت بالقبلات. . لو تمتد ذراعاه إليها. . لو يخطو خطوة. . كلا، لا يملك. . لا تملك؛ الحسرة والعجز يغطيان أحلاما ملهوفة ملأت أغوار القلب طوال الأيام العسرة تطمرها طمرا. .

فى الأعماق اندلعت ثورة كلظى الحريق، تجرف هذا الأسر الذى طال شهورا، وسنين من قبل. . لماذا يستعلى الباطل فوق الأرض، والأرض أرض الله؟! لماذا تصفد وجه الحق سلاسل غل طاغ يستأسد حول رقاب العزل، ويهيم على وجهه كالفئران المذعورة أمام رعاع الأرض!

عيناها زائغتان تحدق خلف مكاتب ومكاتب تملأ فراغ القاعة الواسعة. . يتراءى للقلب الثائر وجه الصبية. . ملامح وقحة، لاهية ممسوخة، ورؤوس فارغة لا تعرف من عالمها غير نفاق آسن، تركب أجسادا تغرق فى مستنقع شهوة. . وهم. . جند الحق. . هذه الرؤوس المزدانة بالعلم، وهذه القلوب الممتلئة بالرفعة بثتها تقوى الله. . من

هم؟ . . هم أسرى فى هذا الماخور الفاجر! . . كيف تكون الدنيا حين تكون القسمة فيها على هذا النحو؟! . . أى طراز للعيش يعيش حين يكون العالم هو هذا العالم؟! . . أى مصير للبلد المقهور حين تكون السلطة للجهال وللعبث الفاجر؛ ويكون العلم مداسا تحت الأقدام . . وأى زمان للكفر الكالح يمحو من وجه الأرض كل بذور الخير!

يخنقها الإعصار المائج فى الأعماق، يمزق كل سكون السطح الذى تعتصم به، يذرو كل هدوء الفكر ويطرد أشباح الخوف، يسحق كل خلية حكمة أو نبتة حذر . . وتفلت من فمها الكلمات بغير لجام! هه . . كلمات! وما أضعف الكلمات أمام هدير المدفع! . . أيقظها من زوبعة الإعصار صوت الطغاة يدوى هادرا، ينذر بالويل والثبور؛ ينهال بالسباب والتهديد . . وفى لحظات تيه أسود انتزعت، تتقاذفها الأيدى والأرجل . . تقذفها فى مكمنها المظلم . .

. . . وهو؟ أين تراه الآن؟ . . ترى مازال هناك، فى العذاب؟! ماذا كان مصيره؟ . . ماذا فعلوا به . . أعزل مثل الكل . . لا يملك دفعا! . . هل ينتقمون منه بما قالته لهم؟! . . يا للهول! . . يا لبشاعة أحقادهم! . . لماذا فعلت ذلك كله . . لماذا انهار الجبل الراسخ؟ . . لماذا لم تدركها حكمتها هذه المرة . . لماذا لم يسعفها الصبر . . ماذا تغنى ثورة عزل داخل أسوار الأسر . . لماذا . . لماذا؟!

لحظة ثقيلة كالموت تسحق الكيان المثقل كأنما انقضت عليه أهوال السماء . . كالتائهة تحدق فى الوجه الحبيب . . الجديد . . لقد حفر سمته فى أعماق القلب . . ترى أين هو الآن . . ربما كان تحت مطارق التعذيب جزاء لما فعلت هى . . رأسها يتمزق، يكاد يتفجر . . تصرخ . . لكن الصرخة لا يخرجها الفم المقفل!

النظرة المشدوهة الصامتة حين سمع الخبر المزعج توغل فى كل عصب، والعينان الغائرتان المرهقتان يدهمهما ذلك الهم الجديد تلحان عليها، ترتسمان فى أغوار النفس، النظرة تغرز أسفا فى الأعماق، تدمى جنبات الروح!

لماذا ذكرت ذلك الحدث المفجع؟! لتدين الطغاه بهمجية عصر الغاب؟! هه.. وماذا يهمهم من ذلك؛ من ذا الذى سوف يحاسبهم لو قتلوا كل الأسرى؟!.. الشعب؟.. الشعب يصفق للقتلة! لهمج الأدغال المنتصرين! المنتصرين على العزل من بنى جلدتهم فى أعماق الغابة!.. الشعب المحروم من النصر يشمله النصر؛ حتى لو كان على جمع أعزل! حتى لو كان على خيرة أبناء الوطن!.. والمنتصر يحظى بالإكبار حتى لو كان يغشيه سواد الباطل؛ حتى لو كان يفوح برائحة الكفر!.. الكفر.. كبيرةٌ الكلمة.. أكبر بكثير من وعى الشعب.. لو كان يعلم لتغير موقفه حتما، لكن.. منذ زمان بعيد قد حيل بينه وبين العلم، وأقام الشياطين سدا منيعا بينه وبين حقائق دينه فعم الجهل حتى فى أروقة العلم!.. الشعب المكفوف عن العلم الحق أضحى سندا لوحوش الغاب المنتصرة!

.. الحساب الحق آت لا محالة، توقن به، فالله لا يعجزه شىء.. لكن القلب المعجل لا يصبر، الواقع القريب يثير شجونه، يحرك فى الأغوار لواعج حزنه، ويشعل نار الثورة فى الأعصاب.

حين ذكرت لهم الله، حين ذكرتهم بعقابه، بعذابه وانتقامه.. كم ضحكوا.. كم سخروا! قالوا: فى الآخرة تظنين.. ها.. انتظرى حتى تأتيك.. هنا نحن الذين نتخذ القرار، وهنا أنتم تحت أيدينا!

الندم . . ما أقساه الندم، يجوس مع الظلمة، يخترق شرايين القلب . . هل تقول ليته ما كان ذلك اللقاء؛ رغم لهفتها التى أحرقت أيامها إلى لقاء، إلى أن تراه ولو من بعيد، حتى أن تسمع اسمه، تستيقن فقط من وجوده فى عالمهم! . . لكم ظلت أياما وشهورا تتلهف . . فالأخ الأكبر تأتيها عنه الأخبار عبر حلقات التحقيق التى لا تكف، يشوى قلبها ما يدبر له من كيد، لكنها حين يقعد قلبها العذاب تركن للأمل تحييه بالدعاء اللاهف . . أما هو فلم تسمع عنه كلمة . . ظلت تترقب لحظات رحمة يجمعها الله به؛ حتى الأسماء تنادى لحفلات التعذيب البشعة، كانت تتلهف أن تسمع فيها اسمه ! تستيقن أنه فى دنياهم بعد، لم تطمره رمال الصحراء كما طمرت رفعت والعشرات . . كم نبشت فى أحلام النوم، وفى إرهاصات القلب، وفى لهفات اليقظة تبحث فى المجهول، فى الغيب المسدل عن طوق نجاة يطفئ أشباح الفزع الجاثم حول الأخوين، وحول البيت المستهدف.

لكن . . ليته ما كان ذلك اللقاء . . لكم آذته به! . . لماذا ألقت أمامه بذلك الخبر الفادح! . . إن عينيه المشدوهتين للخبر المفجع، الصامتتين صمت العجز تعذبان قلبها، وتلذعان روحها كلذع النار . . لماذا قالت له؛ كالطفلة تلقى بآلامها إلى صدر أبيها! . . اللهفة الحارقة إلى الأهل . . إلى المعين على احتمال الهول . . نعم . . لكن أين النضج الذى ساقته إليها التجربة الكبرى فى أدغال الشوك؟!

. . ولكن هو . . ماذا يستطيع أن يفعل هو؛ وهو مكبل بقيود الأسر، تماما مثلها، وهو أعزل أمام فوهة المدفع؛ هل يملك غير الألم الكاسح، حتى الألم المعلن لا يملكه؛ حتى الدمع لا يملك إطلاق سراحه إلا حين يكون وحده، داخل جدران الزنزانة . . ألم تجرب ذلك كله . . ألم تعشه

بكل ضراوته دقيقة فى إثر دقيقة، حتى رحم الله قلبها ببرد سكينة ونفحة رضاء. . ألم تجرب قسوة حدث الموت وهوله الذى أودعه الله فيه، حين يطويه القلب على ذاته، فريدا تطمره الوحشة، بغير لفتة قلب يحنو، بغير لمحة حب تبدو فى عين قريب، بغير كلمة عزاء ينطق بها لسان بشر حتى لو كان غريبا، حتى لو كان عدوا! . . ألا تذكر كيف عاشت ذلك اليوم، يوم أن تلقت ذلك الخبر المفجع. . كيف عادت إلى زنزانتها فى تلك الليلة، حين طوقتها الجدران الشاهقة كجدران القبر، حين أغلق خلفها الباب الأسود، الجاثم كجسد الشيطان، وناح صريره كعواء الموت، واحتواها الظلام، فريدة تطمرها الغربة، لا يطرق عالمها مخلوق حى. . حتى الغرباء. . حتى الحيوان والهوام؛ وحدها مع الموت، وقد صار فى دنياهم، يجثم هيكله الأسود فى كل خلية. .

ألا تذكر كيف قضت الساعات، تتأوه بغير دمع، تتلظى بغير قطرة ندى ترطب ألسنة اللهيب، لا يسمع لها أحد، لا يجاوب قلبها مخلوق حى حتى بلمحة عطف!

هل نسيت وحشة الظلام وصرخات المعذبين ولذعات السياط يتفتت لها الكبد صارخة دون مجيب، دون معين يحمل معها ثقل الحدث الفاجع. . هل نسيت كيف كانت آهات المعذبين التى تنصب عليها من فتحات الطاقة فى أعلى الجدار تجسم فى عينيها المشهد الرهيب حين عذب حبيبهم حتى الموت؛ حين أسلم الروح وحيدا فى قبضة الوحوش يعبثون به ويسخرون بما شاءت لهم نذالتهم. . ألا تذكر الليل الطويل كأنه الدهور يجثم فوق كل عصب، يزحف بطيئا كعجوز مقعد فوق كل عرق، لا تقطعه كلمة، واللهفة المحرقة إلى الأهل تلقى إليهم بالخبر فى لب حياتهم فيحملونه معها؛ يعيشون معها هول الموت ولوعة الفراق

وصعوبة المصيبة فتخف ويهدأ لذع الحريق بعد حين، المصيبة التى سماها مقدرها على البشر «مصيبة الموت» وقدر أن تكون أشق ما يعانونه فى رحلتهم فى أرض الشقاء!

لماذا نسيت ذلك كله فى تلك اللحظات حين لقيته.. لماذا قذفت أمامه بالخبر الفاجع ليعيش وحده ما عاشته؛ وليعانى وحده ما عانته؛ وهو فى ذلك الهزال الصحى المخيف!

من لها بطمأنينة!.. بخبر عنه.. بكلمة عنه.. والطريق بعيد كنجو السماء! والمفازة شاسعة، سور المجرمون فيها كل خطوة.. قطعوا فيه كل ما أمر الله به أن يوصل، وحرموا كل ما أحل وأحلوا كل ما حرم. ترى فى أى مكان يقطن فى أحراش هذه الغابة الشاسعة؛ وحده مثلها أ معه آخرون.. كيف تستطيع أن تتنسم عنه خبرا؛ من تستطيع أن تسأل والكل من حولها وحوش؛ عقارب وثعابين تنهش لحومهم وقلوبهم. لماذا هذا العداء المفرط، من الذى صنعه؛ من الذى ألقاه فى قلوب كل فرد، وهم.. هم لم يحملوا قط حقدا لأحد، ولم تخطر فى قلوبهم قد رائحة الكراهية حتى للمخطئين.. هل تكون جريمتهم الكبرى أنه مسلمون؟! أيكون ذلك فى بلد يقول أهله إنهم مسلمون؟!.. ولكن. فيم يعيش أهل هذا البلد المنكوب؟! إنهم يعيشون فى جحور الرعب. هم أيضا أسرى فى المعتقل الكبير.. تحت مطارق الكلمات المصقو يعيشون؛ يطن دوارها فى رؤوسهم فتلوث أفكارهم؛ تخترق قلوبه فترديهم؛ كنصل الخنجر هى، لكنها تلبس قفاز حرير ناعم.. ياالضراو الكيد ويا لهول المعركة!.. لكن المستضعفين لا يشعرون أن فى السا معركة كبرى، وأن خيرة من فى الأرض هم وقودها.. هل يعذرهم ال بجهلهم، بضعفهم واستكانتهم.. ترجو لهم الرحمة والرفق من الخالق

داهمها وجهه على الرغم منها، نظرته الصامتة الوجلى وهم يقتادونها كزبانية جهنم فلا يملك لهم ردا، لا يملك حتى حركة؛ حتى كلمة! . . قطرات مرارة انسابت من عينيه، ابتلعتها فى أحشائها كل حنية . . وتلك البسمة التى ودعها بها، ما أقساها كانت تلك البسمة! . . تحمل فى شغافها أهوال قضية تنضح بالدم . . ترى هل تركوه؟ أم إن عذابا ينصب عليه الآن فوق كل عذابات القهر؟!

يا ألله . . ماذا تفعل لترد الصور المحمومة . . لتدفع شواظا يندلع فى كل حنية؛ وأعصابا يلهبها الفزع، يفتتها الخوف عليه، ويمضها هوان القهر . .

لكن . . هل ترضى . . هل ترضخ للباطل فتعيش . . هل تمتثل للطاغوت فتسكن القصور وتستمتع بكل نعيم العيش . . ما كان أسهل أن ترضخ وتعيش . . لاهية وسط جحافل القطيع . . تأكل فتات الذل مع المستضعفين . . مع المستضعفين تحيا ومع المستضعفين تبعث، تسأل «فيم كنتم»! . . هل تقبل؟ . . هل ترضى؟! . . كلا . . كلا ورب المؤمنين! . . ولتدفع الثمن، مهما كان فادحا، من عمرها الأرضى الذاهب؛ ولتخط دنياها . . دنياهم، فى أدغال الشوك؛ ذلك أهون بكثير . .

تتذكر . . ذاكرتها غدت سجلّ وثائق تدمغهم . . تتذكر أول ليلة حين قبض أحدهم فى حنق على كتاب الله الذى كان فى حقيبتها وألقاه بعيدا وهو يقول: هذا هو الذى أفسد عقولكم . . هو الذى جاء بكم إلى هنا! . . وتتذكر ذلك الموقف السامق أمامهم أول لقاء بكبيرهم، حين نهرها غاضبا وهو يقول: الناس كلها راضية، صامتة؛ لماذا تعارضون أنتم دون الكل؟ . . قالت له يومها كلمات لا تنساها . . قالت: وجدنا

أنفسنا واقعين لا محالة بين غضبين؛ إما غضبكم وإما غضب الله؛ فاخترنا غضبكم؛ فهو رغم كل شيء، أهون بكثير!

فجأة دار الزمن بعيدا أمام عينيها، ألقى رحله عند لحظة كفر سوداء اغبر لها وجه الكون؛ هنالك والأيدى الآثمة المزهوة بالسلطان تلقى القاذورات على ظهر الساجد المختار، وابنته الزهراء تشاهد، تسمع، تبكى، عاجزة أن تفعل شيئا يقصم ظهر الباطل، ويرد إهانة أكرم خلق الله على رب الكون!! . . أفيقهرها عجز حبيب يجله القلب وتكبره النفس، يقضم منها أغوار القلب؟ . . أو تستنكف أن يقف أخوها موقف قهر؛ ويمض كرامتها عجز الأسر؟ . . أو يحزنها استعلاء الباطل، برهة، فى عمر زمان ممتد تتغير فى مسيرته الأحوال، تهبط فيه الأقدار وتعلو! . . وهم . . وهما . . هى وأخوها، جند من جند الله لهذا القائد الكريم . . وهم، وهما، خلق عادى من خلق الله وذاك نبى الله الخاتم! . . هل نسيت أن لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء؟! . . أولا توقن أنه إذا استشرى الباطل كان ذلك إيذانا بزواله فى سنن الله الكبرى . . ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس﴾ . . ألم يعلمها التاريخ كيف باد دعاة الباطل وكيف ظهر نور الله فى الآفاق؟!

لحظات سكينة . . البرد يغلف شغاف القلب . . ينطفئ القهر، تتوارى الصور المحمومة وتسترخى أعصاب ألهبها الفزع الضارى . .

ومن التاريخ الناصع تتسلل عزة فاطمة الزهراء إلى أعماق الروح . .

تراهم خلف مكاتبهم كالهوام. . تقتل، لكن كعقرب عمياء. . تدمى، تودى بحياة، ولكن أدنأ من ثعبان زاحف. . جندهم من جند الباطل؛ ما آكثر جند الباطل فى هذا العصر الأسود، تعج بهم أرض الدنيا!. . لكن، ما أندر جند الحق!. . لكن. . ما أسعد جند الله؛ حتى حين تدفع الرياح بأرجلهم خطوات فى أدغال الشوك.

٨

رحلة فى أحراش الليل

أحصت الدقات الثمانى التى حملها إليها الهواء من الساحة الواسعة فى الخارج معلنة أن الساعة قد بلغت الثامنة. . فقط الثامنة؟! ساءلت نفسها فى فزع: «بعد ذلك العذاب كله، الذى ظنت أنه قارب النهاية؛ وأن الصباح المرتجى أصبح وشيك البزوغ؛ وأن المشاق التى لا تجد لها حلا قد آذنت بنهاية!».

ثلاث ساعات فقط قدمضت منذ انسحبت من الزنزانة المغلقة آخر خيوط الضوء، ولفتها أشباح الظلمة، وسكبت من روحها الثقيلة فوق الباب الأسود والأرض الرمادية القاتمة! . كيف إذن سوف تنقضى الساعات الطويلة الباقية حتى يبزغ الصباح! لكأنما هذا الليل البهيم. . لحظاته وساعاته. . مساحاته طولا وعرضا، قد صيغت من نسيج لا يبلى، واستمدت روحها من أغوار الجحيم!

فى الصباح، حين جىء بها إلى هنا للتنكيل، كانت اللوحة فى حسها رائقة، يغمرها الضوء، وتتخلل الشمس المشرقة ثناياها؛ كانت تعمرها الحياة والظلال، وتتلألأ معالمها فوق قمم منيرة؛ كانت فى قلبها بلون الانتصار؛ بيضاء كوهج الشمس! . . نعم فإنها لم تهن؛ عزيمتها ظلت

فوق جبروتهم؛ تحت كل التهديد المفزع لم تفزع؛ تلقته بهدوء فارع، لم تلن؛ لم تعتذر إليهم كما طلبوا لتنجو من بطش عقابهم! . . وهل بعد ما ذاقته من شدائد منذ قذف بها فى هذا السجن الرهيب ما يفزع! . . وهل بعد ما عانته تلك الشهور الطوال من ألوان التنكيل: تنكيل لا يمكن أن يمارسه حتى وحوش الغاب الشرسة! وقد أنشبوا مخالبهم فى أعماق القلب، وقد لاكت أنيابهم منها الكبد كما لاك أجدادهم من قبل كبد حمزة!!

فى الصباح . . كانت اللوحة فى حسها رائعة حقا . . هى . . الفتاة العزلاء من كل سلاح، وسط الغابة الضارية مدججة ساحاتها بأدوات العذاب وأظافر الموت واستعلاء الباطل . . تقف أمام قطيع الوحش منتصبة القامة، تلقى فى وجوههم بالاتهام تلو الاتهام، تبهتهم بفجورهم، تعلن لهم حقائق باطلهم وتطاردهم بجرائمهم! . . فى موقف الدفاع أوقفتهم؛ وهم «سادة» فوق كل دفاع! . . متسابقين، يدافعون عن أنفسهم دناءة الضبع، غارقين فى الخزى، يشاهدون قزامتهم فى المرآة التى أشرعتها كلماتها أمام أعينهم! . . الوحش يفتك حين يعضه الجوع، ولكنهم أدنأ منه؛ يفتكون للتلذذ بإهراق الدم؛ بتمزق الضحية، بإذلال الإنسان؛ يأكلون لحوم البشر وعظامهم ليسمنوا . . فقط ليسمنوا . . ليتملقوا سادتهم؛ وليشبعوا فسقهم الواغل فى قلوبهم!

كان منظر شقيقها الذى واجهته هناك باعثا لهياج قلبها؛ ألقت عنها أحمال الخوف؛ ورهبة الأعزل وسط قطعان الوحش؛ وانطلق لسانها بالكلمات حادة كأسنة الرماح تخترق رؤوسهم وقلوبهم . . وهل تملك غير الكلمات! لكن . . أليس أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان

جائر . . وهل ذكر لنا التاريخ من هم أشد جورا وأدنأ خيانة وأعظم جرما منهم؟!

في الصباح، كان القلب ربيعا تطفر فيه نبضات عزة، في الأغوار كانت تتهشم سلاسل أسر طويل، وتتحطم، رغم الهول، رغم المجهول المفزع، هيبة أسياف الباطل!

في الصباح، جاءها رسول زبانية الموت يعنفها على ما قالت بالأمس؛ يطلب منها أن تذهب فتعتذر إلى السادة عما جرؤ لسانها على أن ينطق به في حضرتهم! . . ماذا قالت؟ هل قالت غير الحق؟! قالت تنبئ أخاها بالخبر الرهيب الذى أرقها أسابيع طويلة . . قالت لهم إنهم قتلوا رفعت في مجزرة التعذيب الكبرى . . قالت لهم إنهم أعتى من وحوش الغاب، وأن التاريخ لم يعرف مثيلا لهم؛ إلا في محاكم التفتيش وفظائع النازى . . هاج قطيع الوحش الرابض خلف المكاتب الفاخرة وماج . . سألوها في استنكار فاجر هل يحدث في هذا «التحقيق العادل» الذى يقومون به من أجل سلامة الوطن الغالى، ومن أجل القضاء على الإرهاب الأسود، ومن أجل تحرير البلاد من «الرجعية والاستعمار»! . . هل يحدث فيه أدنى إكراه؛ بله تعذيب؟! . . سألوها هل وقع لها، في جولة تحقيق معها، أدنى إيذاء؟! . . يالصفاقة هذا العهد الأغبر؛ يالوقاحة هذا الخلق الشائه! . . أفيملك أن يتبرأ قاتل واجهه المقتول؟!

هل كان عليها أن تكذب حتى ترضيهم! هل كان عليها أن تلعق بحر الدم النازف في صمت دوما؛ أن تغمد أسنان الخنجر في أحشاء القلب الموجع حتى تخفيه؛ وأن تطمس وجه الشمس الساطع في أرجاء الكون؟! . . وقفت برهة مشدوهة لا تدرى كيف تجيب . . قالت

وملامحها تتحدى، تنضح ألما: «أنتم أدرى بما يجرى فى أرجاء الساحة صباح مساء!».

انهال فوقها السباب كالمطر الدافق، أغرقها سيل القاذورات ينبع من ماخور، من وكر جريمة، من عهد كلله فيض فجور جاس فى أغواره حتى القاع؛ الكلمات النتنة تتهاوى من فتحات الأفواه تفترش فراغ الحجرة؛ امتدت أيد لا تدرى كم؛ بإشارة إصبع وبغمزة عين، دربتها مقارفة الجريمة.. امتدت تتدافعها، تتقاذفها صوب الخارج بغلاظة حس مجبولة، حتى توصلها إلى زنزانتها فى صمت قاتل!

عن ماذا تعتذر إذن؟! قالت: «كلا.. لن أذهب» رفضت طلب الزبانية أن تعتذر إليهم.. قالت إن لسانها لم ينطق كلمة واحدة ليست حقا!.. قالت كان عليهم أن يعتذروا هم عما فعلوه!

هه! ماذا ظنت؟! هل ظنت أن الحق له ظل باق فى ماخور العهد؟.. هل ظنت أن الحق بقى له لسان لم يقطع بعد؟! هل ظنت أن الحق مازال له قلب ينبض وقد طوى الأرض بين ذراعيه سليل القردة؟! هل ظنت أن الحق الأعزل يملك أن يتنفس والباطل قد غطى وجه المعمورة.. لكن شموسا ساطعة فى الأعماق كانت فى الصباح تقول: «نعم».. تقول: «مرحى بنزال الباطل حتى الموت!».

جاءت أرض الحلبة رافعة الرأس؛ أرضا جرداء بغير حياة! أرض للموت لا مطمع فيها لاستمرار العيش؛ لا طعام ولا شراب ولا عدة نوم.. أرض، سقف، والجدران!.. هذا جزاء من يرفع رأسه! هذا جزاء من تبقى في قلبه ذرة عزة! من يتطاول حتى بكلمة على ملاك الضيعة!.. هذا جزاء من ينطق يوما كلمة «حق»؛ فالحق الأوحد هو م

تقرره أهواء الطغمة ؛ فالشعب قاصر ، لا يدرى أين الحق ، ولى الأمر وحده يعرف أين يكون الحق ؛ والحق أن يرضى السادة ؛ والسادة هم طرداء اللعنة فى هذا العهد الأغبر ! ! . . حسنا . . سوف تقاوم . . ستقاوم حتى الموت !

كان الصبح أنيسا . . فى وضح النور كانت ترى الأشياء مشرقة بأضواء الحق . . حتى الأجزاء الملتفة فى أطمار الماضى ؛ حتى الأطياف المتلفعة بغبش المستقبل . . كانت فى وضح النور تستعرض دنياها ، والأحداث . . كل الأحداث وظلمتها كانت تتفقدها ، تستعرض كل ثناياها فى النور الهادى . .

فى الزنزانة ذات الأشبار المعدودة ، حملتها ساقاها الناحلتان ذهابا وإيابا طوال اليوم ، فوق الأرض القارسة الصلدة تنفث ثلجا . . الجسد المتدثر قهرا بغلالة صيف ، ينتفض صقيعا فى قسوة زمهرير شتاء قارس فى ديسمبر ؛ لكن الروح تطوف فى دفء النور ، تقاوم ثم تقاوم هواجس إعياء يزحف من كل مكان صوب القلب . .

الساعات تمر . . اللحظة تلو اللحظة ، والساعة تتلوها الساعة ، والقدمان المثقلتان بعبء الجسد الناحل تخطوان باستمرار ، أو تقفان هنيهة حين تكفان عن القدرة ، لكن النور يهيمن ، يجلو كل شوائب العتمة ويشد الأزر . .

لكن الساعات تمضى ، ساعة تتلوها ساعة ، والصفرة تزمع أن تزحف . . تمد خيوطا باهتة ، تنفث أحقادا غامضة فى كل ركن . . لكن النور يهيمن . . مازال يهيمن . . يحاول فى إجهاد أن يبتلع خيوط الصفرة . . لكن . . يتقهقر . . جيوش خلف جيوش تتراجع منسحبة . .

والصفرة تزحف تزحف، ويبهت لون الزنزانة . . كيف يكون الحال إذا زحف سواد الليل، وأنشب أنيابه حول الجسد الواهن والعينين؟! . . والقدمين المقهورتين، هل ستظل تقاوم؟! وهى . . هل سوف تظل ترى . . ترى كل الأشياء صحيحة فى ضوء الحق؟ . . نعم . . سوف تظل تقاوم . . ستحفظ فى جنبات القلب شعاعات نور تشق بها طريقا فى جنبات الظلمة . . هل كان عليها أن تجثو للطغيان الفاجر؟!

القدمان تتحركان . . مازالتا تتحركان . . لكن تزحفان زحفا . . نعل الخف الأملس يصطك بنتوءات الصخر ينشئ ذبذبة خشنة تقلق أبعاد الصمت . . الألم يضج فى الساقين المكدودتين . . والقدمان؟القدمان تورم باطنهما، تلذعه نتوءات الأرض الصخرية، تنفذ عضتها من نعل الخف الأملس، لم يصنع هذا الخف المترف ليلبس هنا! برقت فى عينيها صورتها هناك كإطلالة حلم؛ هناك والخف الشتوى الناعم يغوص بقدميها فى لين السجاد الناعم! . . حسنا . . هنا هى فى ظل رضاء الله . . هى فى قربه . . جندى هى فى الملحمة الكبرى . . فى معركة خالدة بخلود الحق . .

الظلمة تزحف . . بأظافر وحش متربص تنهش مزق الضوء الهاربة، تطاردها فى إصرار، تطبق فوق الأمتار المعدودة، تكسوها بظلال غروب جارح . . ما تلبث أن تتكاثف كتلا صخرية تجثم فوق الصخر!

دقات الساعة تطرق أذنيها . . ستا . . والظلمة تطبق فوق الأمتار المعدودة . . يضيق فراغ الحجرة حتى تلتصق الجدران . . لا تدرى كيف تسير . . لكن . . كيف ستجلس؟! لا شئ على الإطلاق غير الأرض المسنونة . . حسنا . . فلتجلس فوق الأرض . . تجرب . . تصبر حتى تنهى قدرا مقدورا . .

بجوار الحائط تجلس، تمد الساقين. . الساقان والقدمان عروق تنبض، والظهر إلى الحائط. . أوه؛ ما أروح أن يهوى الجسم الإنسانى إلى الأرض الأم بعد وقوف طال، ومسيرة أيام استوعبها يوم!

ترى فى أى مكان يقع هذا المبنى الموحش؟. . فى الفراغ الشاسع وحده؛ لا نأمة. . لا حركة. . لا صوت حياة طوال اليوم، منفردا وحده. . بنوه للتعذيب بغير شك، للقتل الصامت. . كيف يكون الحال إذا أوغل الليل وتفاقم الصمت ورقصت فى سكون الغرفة المغلقة أشباح الظلمة؟!. . هل ستستطيع أن تظل رابطة الجأش؟. . ليتها لا تخاف!. . ليتها تعودت من قبل ألا تخاف! ليتها أعدت نفسها من قبل لهذا الدور السامق!. . ليتها تعودت أن تمارس خشونة العيش. . تذكرت قولة عمر: «اخشوشنوا، فإن النعمة لا تدوم». . حقا؛ لكم أوغل العيش الناعم فى دنيا الناس حتى قتل قلب الأمة. . النعمة تغرق المستضعفين فيساقون كالقطيع، يرضون بالذل والضلال لتبقى النعمة!. . لكن. . أين النعمة؟! هى للحفنة المحظوظة. . الحفنة الطافية فوق السطح الراكد! أما الباقى الغارق في أوحال البركة يأكل الفتات الساقط، فأين النعمة؟ أين النعمة فى أشبار العيش المكدودة، لتبقى لقمة عيش سمراء مغموسة فى ذل الفقر!. . لماذا يقبع الناس فى أغوار الذل من أجل لقمة عيش جافة؟!. . أمن أجل حياة. . مجرد أنفاس تذهب وتجيء؟!

الظلام يفترش الأركان كلها فى هذا الكون الضيق. . لا بأس فلسوف تظل تقاوم. . وستؤنس وحشتها بالآيات المحفوظة على قلتها، لسوف ترددها وترددها حتى تصفو الروح، حتى ينزاح الخوف ويهدأ وجل القلب، وتقر أعصاب الأمن. . ثم. . ثم تنام. . ولكن أين تنام؟!. . كيف تنام؟!. . فلتترك أمر النوم الآن! لتترك هم الآتى للآتى. . ولتحمل اللحظة عبء اللحظة!

كلا لا تقدر! لا تملك أن تبقى فى جلستها. . صقيع قاتل يتخللها، يمد أصابع كالخنجر فى كتفيها، فى الرأس المثقل بخواء الجوع، وبصداع جامح يغوص فى طبقات العظام. . والأرض؟! . . الأرض بهول صلابتها تغرس أسنانا ثلجية فى العظم الناتئ فى كل مكان من مجلسها! . . تقف؟ . . هل تملك قدماها أن تحملها، والساقان، هل تستطيعان الوقوف. . كلا، نبضات الألم الزاعق لم تخفت بعد. . لا يمكن. . تغير إذن من جلستها.

لحظات أم دهر مر. . لا تدرى. . لكن الآلام تلح. . تصرخ فى الظهر وفى الكتفين. . فى كل مكان تلمسه نتوءات الأرض. . تنهض. . تجاهد حتى تنهض. . تحملها ساقان كالقش الذابل. . لكن تمشى. . قد بقيت فى الجهد بقية. . تمشى ذاهبة آيبة دون توقف، تصفعها الجدران. . خيرا. . لولا الجدران لتاهت قدماها فى أغوار الظلمة!

فى أعلى الجدران، تحت السقف الشاهق تنكمش فتحات ثلاث تئن تحت صرير البرد القارس، تصفدها طبقتان من الأسلاك، وتسجنها أعواد حديد، تتضام، تخشى أن تفلت منها أشبار الزنزانة. . الفتحات تطل على صمت ظلام فى الخارج لا تقلقه وصوصة شعاع. . أين تراهم دفنوا هذا الجب الوحشى؟! فى الدنيا أم فيما بعد الدنيا؟! أتعيش هى. . أم هى فيما بعد العيش؟! كلا. . لا يمكن أن يجد المؤمن شيئا من هذا بعد العيش! . . على يقين هى من أمر الله مع المؤمن. . تعيش هى إذن فى دنيا العيش. . فى القرن العشرين تعيش. . فى عصر الحرية والقانون تعيش. . فى عصر حقوق الإنسان!

كانت دقات الساعة باعثة للفزع إلى القلب الذى يتشبث بصمود ثابت لا يريد له أن يتقهقر، يتصيد كل شعاع ينبض فى أعماقه يصد به هجمات

الخوف الزاحف، ويطارد به ضعف الجسد المنهك الذى يلفظ آخر قطرات رصيده، يهصره الجوع الكافر يعوى فى فراغ الجوف، وصقيع قارس، والليل بهيم يكتسح الماضى والحاضر والمستقبل؛ يطمر جذر النور القابع فى أغوار القلب. . كيف ستقضى الليل، طويلا، أطول من كل قواها؟! . . هل كان عليها أن تحنى قلبا لا يقبل أن يعنو إلا لله؛ أن تنكس رأسا رفعت هامته بالإيمان الصادق لا يتذلل إلا للخالق. . وأن تعتذر كما شاء العسف لضلال الدنيا؟!

تهوى جالسة مسندة كتفيها للحائط. . ما عاد مجال للتجوال، فالقدمان رفضتا أن تحملاها، والساقان ينبح فيهما إعصار ألم لافح. . الأعصاب، العضلات والعظم، يعمل فيها كلها منشار دائب لا يكل. . والأشباح تتكاثف فى فراغ الحجرة!

النوم. . لا مهرب إلا فى النوم. . كيف يكون النوم؟ أين يكون؟ والطاقات العليا فى الجدران الشاهقة الطول تتبادل حمم صقيع وتوزعها بالقسطاس على أشبار الأرض المعدودة فى الجب المغلق!

فجأة ينفتح الباب. . يتراءى فى فتحته شبح أسود. . يُلقى فى أرض الزنزانة شىء أسود. . لكن. . يا ألله. . ياللرحمة. . خفق قلبها بوجيب الشكر. . لن يتركها الله وحيدة فى أعماق الظلمة. . حتى الشبح الذى زلزل قلبها بالرعب للحظة، قد ألقى ضوء حياة فى هذا الليل الأسود فى زنزانة الموت.

قامت عجلى رغم الألم الصارخ، قامت تتحسس هذا الشىء الملقى فوق الأرض. . يا للفرح. . هذا غطاء؛ مهما كان رقيقا فهو ملاذ، يصدقليلا من لفحات الثلج القارسة. . وذاك رغيف، يسكت أوار فحيح الجوع يزحف باستمرار يحاول أن يجتاح صمودا يوشك أن يتزلزل. .

نصف غطاء؛ بل ربع غطاء! . . لكن حسنا، هو خير من لا شيء . .
اعتدلت جالسة . . شدت ركبتيها إلى صدرها لعل الغطاء يلف الجسد المتقلص فى أصغر حيز . .

الصقيع اللافح يحمله هواء شتاء فظ جاء يشارك فى الابتلاء؛ ينصب انصبابا متلاحقا من الفتحات فى أعلى الجدارين المتقابلين . . لماذا صمم البناء على هذا النحو؟ . . للتعذيب . . للقتل . . لإشباع عواء الوحش القابع فى أعماق السلطة؛ كيف تحمل أعماق «الإنسان» مخالب هذا الوحش الضارى؟!

لا يملك الغشاء الرقيق شيئا أمام سوط هذا الصقيع الذى يتدافع باستمرار . . يالعذابات الجسد المسكين!

. . الجسد! لا يملك الوحوش غيره؛ حقدهم الواغل كله ينصب عليه، يتفننون فى تعذيبه، يوغلون فى إذلاله . . فى هذا المسلخ تعيش منذ شهور لا تخلو لحظة من تعذيب . . ألوف وألوف تتلظى باستمرار؛ ليلا ونهارا، صحوا ونوما؛ لم يترك الزبانية حتى لحظات راحة، فالراحة هنا لون من ألوان العذاب، كيف هيأ لهم شياطينهم ترتيب هذه العذابات التى لا تكف؟! . . كيف يحتمل بشر، مهما لج به حقده هذا الجرم الفادح . كيف تقر نفوس الطغاة؟! . . ويعيشون؟! . . لكن ما أتعسهم، ما أفشل سعيهم! فالروح بعيد . . بعيد عن قبضتهم . . فى الأفق تحلق، فى نور الحق تعيش . . لكن . . هل ستظل هناك . . هل ستظل تجاهد . . تقاوم كل عذابات اللحظات فى الجسد المنهوك؟!

. . . فى آلام الجسد القاتلة تناضل منذ صباح باكر . . آلام الذراعين والساقين . . آلام الرأس المثقل بدفقات صداع وحشى لا يسكن لحظة . . آلام عظام ملقاة فوق صقيع الأرض الثلجية، آلام المعدة يسحقها الجوع

بأنياب شرسة، وآلام الضغط القاسى للفضلات يلح الجسد الموثق أن يطردها؛ لا يقبل أن يرضخ لأوامر بغى فاجر! . . هل ستظل تقاوم؟!

فراشها الفقير فى زنزانتها هناك يتراءى لعينيها كالحلم البعيد! هناك حيث الليل يأتى ثم يزول رغم الظلمة الجاثمة، تتراقص ظلالها فى الأرجاء المسجونة بالجدران الأربع والباب الواقف كسجان عتيد! حتى الليل هناك لا يقتله الصمت . . تشعله أصوات ذئاب تعوى، ملء اللحظات تهدر بسباب مأفون، تأتيها من فتحات الطاقات فى أعلى الجدران! وتقرقع لذعات سياط عجلى فوق الأجساد، ويخترق ذرات وجودها أنين المعذبين من كل فج . . يمر الليل المترامى فوق شغاف القلب . . لكن يعقبه صباح . .

يالله . . حتى أثقال الهم الساحق يألفها القلب؟! انقبضت روحها للخاطر الثقيل؛ كيف يألف القلب، حتى ذلك العذاب السحيق؟! كيف يألف الإنسان العيش حتى فى غابات الوحوش وفى ذل الأسر؟! . . أبسبب هذا الإلف رضى الناس ومضوا يذرعون العيش، رغم فداحة المنزلق؟! رغم الهاوية التى تفغر فاها على مد البصر، ورغم مذلة الخنوع التى أغرقت الأحرار فلم يبق لدى الآخرين غير خنوع العبيد؟! . .

حتى ذلك الفراش الرث نالته الألفة كما نالت البؤس عند البؤساء . . فغدا هو الآخر حلما تهفو إليه النفس فى ليلها الجديد الثقيل، فأين منها ذلك الفراش، يلتف به الجسد الناحل المعذب الذى يئن منه كل مفصل وتتهاوى عظامه تحت طرقات الصقيع المدجج بأسنان الثلوج؛ من لها به؛ بكل قذاراته، برائحة صديده تثير ثائرة الأنف ويتقبض من زهامتها الجوف . . تحبكه تحتها وفوقها فلا ينكشف منها ساق ولا ذراع! تمد بداخله الساقين اللتين تحنان حنينا موجعا لأن تتمددا لحظة، تحتها فراش

وفوقها غطاء يحميانها من فكى الأفعى وسم صخرها الثلجى، يدفق كل ثانية دفعة من ألم فى غور العظام والعضلات وأطراف كل عصب!

حتى وسادة الحجر كما كانت تنعتها؛ من لها بها الآن؛ ترفع الرأس الذى تئن فيه كل ذرة، ترفعه بعيدا عن أسنان الحصى المدببة التى تتناوشه كل لحظة، فيخفت ساعة ذلك الصداع الوحشى تؤججه دفعات الهواء الثلجية تسقط فوق الرأس المثقل بالضغط العالى يقارب الانفجار؛ تتلقفه من كل حدب وصوب!

يا ألله.. لماذا تتناوبها الأفكار السوداء.. هل قتلت آلام الجسد الدامى وثقلة الطين نبضات الروح!.. هل فقد القلب الخيط المشدود إلى كوكبه الدرى الهادى فكف الروح عن التحليق فى آفاق النور؟!.. لماذا تلح النظرة المشدوهة فى وجه الشقيق للخبر المزعج وتغرقها بسهام عتاب يخترق شغاف القلب؟!.. ما الذى ظلل وجه اللوحة بظلال سوداء فارتد العمل الباهر مدعاة للحسرة؟!

يا ألله.. لا تتركنى وحدى.. الغطاء الرقيق فوقها لا يحجب لفح الصقيع؛ والأفكار القلقة تغزو قلبا تئن فوقه أكداس عذابات الجسد.. لا طريق إلى النوم؛ حاولت.. كثيرا حاولت.. المرة تتلوها مرات.. الجسم الذى حطمه الإعياء تقلب فى كل الأوضاع؛ فيما منحته الإمكانات المحدودة.. ما عاد موضع فى هذا الجسد المسكين لا يلذعه ألم فادح.. فليجلس!

لتجلس؛ ولتعد شد ركبتيها إلى صدرها؛ لتتكور فى أصغر حيز؛ وتلف حولها الغطاء.. صغير هو جد صغير.. لا يكفى لغطاء وليد؛ لا تدرى من أين جاءوا به.. ترى هل صرح به العتاة الكبار.. ليتم

التعذيب! . . أم إنه منحة طيبة من عند الحارس، وقد لمحت فى نظرته نبض «الإنسان»! . . أسرى هم الآخرون . . هؤلاء المساكين الصغار . . ولكنهم عبيد وا أسفاه! يعملون ليل نهار فى خدمة السلطان الجائر، هم مخالبه الوحشية فى هذه الغابة، ينشبها فى أجساد عباد الله، ببشاعة وحشيتها يمزقهم فتسيل بحار دماء وتزهق أرواح غضة . . ينتقونهم خصيصا إلا الفلتة العابرة . . الأكثرية من بينهم تشارك بقلبها، بدينها؛ تعيش أمتع أيام حياتها فى شقوة المعذبين . . تستمتع حتى الثمالة؛ تعوض للقلب الوحشى خزى هزائم وهزائم حملتها من قبل؛ تكمل نقصا، تملأ ثغرات حفرها ذل مهانات غمرت ساعات العيش . . لكن الساحة لا تخلو من قلب مازال ينبض فيه الإنسان؛ ضمائر ترفض أن توجد فى هذا الماخور بنات أسر مصونة؛ كثيرا ما رفعوا أيديهم يدعون الله أن ينتقم من الفجرة! . . حتى هذا الصباح، فى هذا الجب القاتل تعاطفت معها عيون مفعمة بالأسف . . واحد منهم وعدها سرا أن يأتى فى جوف الليل، حين ينام الجمع، فيخرجها إلى دورة المياه رغم الخطر الداهم! . . هم ضحايا؛ الجهل المظلم يطمرهم والفقر وذل القهر! تتحرق أنفسهم على لحظة سلطة يذودون بها عن قلوبهم خزى عيش طويل وهزائم منكرة فى ساحات الشرف! . . مساكين . . يبيعون آخرتهم بدنيا سادتهم!

لحظات نور تنقلها من ظلمات الليل، فما أجزل عطاء الله لهم؛ هم أسرى . . نعم . . لكن أحرار؛ والناس فى هذا البلد المنكوب أسرى فى أغلال الدنيا، تطمرهم تلافيف عيش ذل ذاهب؛ أما هم، فهم يشرون بعذاب عابر، حياة أفضل من كل حياة! . . يبنون المستقبل . . حتى فى الدنيا؛ بقطرات الدم، بذرات القلب، بعذابات الجسد فى أحراش الليل، والناس نيام!

غابت عن واقعها زمنا، غلبتها أفكار شتى حتى عن آلام الجسد وفحيح الصقيع! تتناوشها أفكار ثرية، تتوالى.. إشعاعات تبرق تعقبها ظلمة ثم تضيء.. ترى هل أعلنت الساعة عن دقاتها العشر؟! أفلا ينتهى هذا الليل.. أفلا يشرق فى الكون صباح؟!

الألم يعود يجلجل؛ يصرخ فى عضلات الجسد الملتصقة بصقيع الأرض، يغوص حتى الأعماق؛ تتجمد مواضع مجلسها كله وتنوء بألم يلذع كالنيران.. تتململ فى بطء.. تتحرك فى حذر، فالقدمان والساقان يتغلغل فيها خدر ثقيل.. لا مفر من أن تعفى هذه العضلات من عض نتوءات الأسفلت، ولو لحظات.. تحاول الوقوف إذن مهما كلفها الأمر!

تهم.. لكن جانبها الأيسر يخذلها، يغوص فيه الخدر حتى أعماق عظامه.. تنكفئ إلى الأرض فيتلقاها الحائط القريب تسقط لحظات فى إعياء شامل! ماذا تملك أن تفعل لتنام هنيهة! النوم.. النوم ضرورة حتى تتماسك، حتى لا تقع فريسة يأس مظلم، حتى تبقى للروح بقية قوة فلا تنهار الأعصاب وهى تواجه عدوا متربصا.. ماذا تفعل؟!

تنتصب واقفة فيما يشبه ثورة.. لابد أن تقاوم؛ لن تترك هذا الجسد يخور بضعفه.. يهزمها.. يستضعفها فتزل.. وتذل.. لن تتركه ينهار.. الألم القاتل لا يصمت لحظة؛ لكن القدمين تدوران؛ تدوران فى أرض الغرفة تبحثان عن ملجأ؛ عن ركن ينجو من هول صقيع يخترق الذرات ويجمدها!

كلا.. كل ركن ككل ركن! تقف هنيهة تختبر الأركان؛ كلا، كل مكان ككل مكان، تمتد إليه أذرع الأخطبوط.. الأذرع الثلجية تلذع كالسوط اللافح، تكمل عمل «السوط» طوال الساعات!.. كيف يعيش الجسد العظمى وقد نزف من قبل كل رصيد قواه؛ كل عنفوان شبابه،

تحت سياط الهول، فى طاحونة الأحداث النازفة بعذابات لا تحصى؛ كيف يقاوم سياط الحمم الثلجية؛ كيف سوف يظل يقاوم ليلا جمدت منه الأقدام وتيبس فيه خطو اللحظات؛ آه . . لو تخلص من هذا الجسد المقهور القاهر! أو تتخلص من أوهاق الليل . . القلب يتفجر حنقا . . كيف تميت هذا الألم الزاعق . . ماذا تفعل فى ثقلة هذا الجسد المنهار . . لو كانت رجلا! . . هه . . هل كانت تملك قهره؟! أو قهر الليل؟!

برهة تفكير تتمزق منها أعصاب الرأس المكدودة . . لكن . . حسنا . . فلتفترش ذلك الغطاء القاصر أيا كان . . تطويه فيصير سميكا . . لو يكفى قامتها فتمد عليه الجسد الذى قوسه ضم الساقين إلى الصدر؛ ثم تمد الساقين . . ولتخلع من قدميها الخفين، تضعهما تحت الرأس المتعب؛ ولتحتمل سياط الثلج الآتية من الخارج حين تلف ذراعيها فوق البطن؛ فلعل النوم يداهم عينيها المثقلتين . فتغيب عن الآلام ولو ساعة . . ساعة تحذف من عدد الساعات المرتقبة حتى يأتيها نور صباح . .

دقائق! . . كلا لا يمكن . . الفرق مهول بين النظرية والتطبيق! . . لا يمكن حتى بضع دقائق! الجزء المفروش لا يكفى الجسد الممدود؛ والرأس فوق الخفين يطيح؛ يهوى فوق حراشيف الأرض تتمزق معه أعصاب الرقبة؛ والقدمان العاريتان تئنان فوق نتوءات التربة الفاغرة الفم المنشارى؛ والأدهى من ذلك كله صفحات الثلج المتجمد تقذفها فتحات الجدران فوق البطن وعلى صفحة الجسد العارى إلا من غلالة ثوب من أثواب الصيف القائظ! . . يارب القدرة . . كيف تظل تقاسى دون مغيث؟ . .

تقوم . . تجلس هنيهة . . تفكر . . ليس لها أن تنهار . . هذا هو الواجب الأوحد حقا! . . تعيد ترتيب الفراش بشكل جديد . . فليكن نصفه تحتها ونصفه للغطاء! ولتعد قدميها داخل الخفين؛ ولتمد الساقين .

تتلهفان هما على لحظة راحة. لتنم على الجنب الأيمن ولتقرأ ما تحفظه من آيات القرآن، ولتغلق عينيها. . ولسوف يدركها النوم!

هل أدركها نوم؟! غفل عقلها لحظات دون شك، نسيت فيها الآلام. . ترى هل طالت تلك اللحظات؟ . . ترى أين هى الآن من هذا الليل الممتد بلا آخر؟! . . ترى هل دوت دقات الساعة فلم تسمعها؟ . . لكن أين الحارس الطيب ذو الملامح السمحة الذى وعدها بالمجىء؟ . . كم تخشى ألا يأتى فيتحتم عليها ضم اليومين معا؛ أو أكثر، لا تدرى، وقد تفاقم ضغط الشدة!

تقوم. . لا مفر من أن تقوم؛ فقد ذهبت سنة النوم. . كل عضلة تئن بألم من نوع خاص؛ والساقان قد جمدهما الصقيع؛ وذراعها الذى توسد رأسها أثقل من جبل منهار. .

تمشى. . من جديد تمشى. . تقطع أرض الزنزانة، أمتارها المعدودة ذاهبة آيبة. . وقع القدمين فى الصمت الموغل يرتد إلى أذنيها؛ ينشىء خشخشة موحشة يرتد صداها إلى قلبها، يقشعر منها البدن المفزع بالظلمة. . عيناها المفتوحتان على مصاريعهما تجوسان فى أشبار الزنزانة شبرا شبرا تبحثان عن موئل أمن. . ماذا تفعل. . هل تعودإلى الفراش فتسكن خشخشة القدمين؟ هل تذهب إلى الغطاء تخفى فيه الأطراف العارية فلا تنهشها أشباح ظلام تتراقص فى كل مكان حول الجسد المجفل؟ . . كيف تصد الوحشة، ومخاوف تنشب مخالبها الوحشية حول القلب!

تسبِّح . . نعم . . لم غاب عنها هذا الخاطر . . تسبح لعل التسبيح يهب قلبها معية الله . . تذكر الله يذكرها . . تستشعر الله الواحد فى الأعماق . . تركز قواها فى استدعاء الرحمة من عنده . . فلا ملجأ منه إلا

إليه . . الكل عبيد؛ الكل عاجزون حتى فجار القتلة؛ ألم تعرف طريقها إليه من قبل فى كل هول؛ ألم تدركها رحمته من قبل فى كل كرب؟!

خشخشة عند الباب توقف منها الخطى . . يقف منها شعر الرأس . . مَنْ؟! . . فى فزع تصرخ : مَنْ؟! . . من إخمص قدميها حتى قمتها تتصاعد قشعريرة واجفة . . مَنْ فى هذا الليل الموحش . . ماذا يراد بها . . عزلاء فى غابة الوحش . . فى أحراش الليل . . !

فتح الباب ببطء . . دخل شبح لا تتبين فى الظلمة سمته . . همس : الآن فقط استطعت أن أجىء . . بسرعة اخرجى، وسأقف أراقب الطريق . . ربنا يستر . .

يا للرحمة! . . يا ألله . . حين يخرج العبد من حوله وقوته؛ حين يوقن أنك أنت وحدك صاحب الحول والقوة . . حين يستيقن القلب أن لا ملجأ منك إلا إليك! . . فى دقائق قضت حاجتها ثم عادت خفيفة منتعشة الروح . .

فى طريق العودة واجهها الأفق الشرقى . . لمحت وراء الظلمات المتكاثفة شعاعا أبيض يحاول أن يخترق ستار الظلمة . . يا للفرحة! . . الفجر . . الشمس يقترب سناها أن يبزغ . . يا للقدرة القادرة! . . مهما طال الليل . . لا يعجز الله شىء فى السماوات ولا فى الأرض!

ستقاوم إذن . . وستصبر . . وستبقى صامدة رافعة الرأس . . واثقة القلب . . سامقة الروح . . حتى يشرق فى أرض الله صباح . .

٩
للزمن القــادم

. . . هل كان اختيارا صحيحا ذلك الذى تم ؟! . . والقافلة ما تزال فى نقطة البـدء . . والجمع لم يتجاوز كثيرا الخطوات الأولى . . والبون ما يزال واسعا بين أعضائه وبين ما قال لهم . . وهم بعد لا يدركون ما يجب أن يقال للعدو وما لا يجوز أن يقال؟!

كان السؤال يلح على أعصابها وهى عائدة، يملأ الفراغ المترامى حول خطواتها، ويحجب عن ناظريها معالم الطريق . . . وكانت أجوبة شتى تتناقض وتتشابك ولا تستقر . .

لقد كانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لها حين أنبأها بذلك وكيل نيابتهم . . حين ذكر لها اسم القائل وما قال . داهمتها فجيعة مثبطة؛ وانسرب إلى قلبها شعور قارس بالفشل، بالخيبة والضياع؛ فالقائل ليس ذلك المتكس الذى اتخذه العدو «شاهد ملك»؛ ولكن القائل كان أحد المقربين؛ واقف بجوار القمة؛ قريبا قريبا منها! . . إلى من إذن يفضى بالحقائق؟! . . من إذن يحفظ القول الثقيل؟! . . من إذن يؤتمن على المسيرة؟!

الجهل وحسن النية؟ . . نعم . . ليست هناك أسباب أخرى! . . إذن يا للخيبة! الجهل يغرز أنيابه . . حتى عند القمة!

كانت قدماها تذرعان الطريق الطويل عائدة من «خيمة التحقيق»، تلك التى نصبوها فى الفراغ الواسع داخل السجن الكبير، وسموها «خيام التحقيق لنيابة أمن الدولة». . كانت مجرد لعبة من ألعابهم البهلوانية، فهم لم يكونوا فى حاجة إليها، اللهم إلا ليقنعوا السذج بأن العدالة تأخذ مجراها! . . فالأحكام مقررة من قبل؛ وهى فى أدراج مكاتبهم كما صرح بذلك أحدهم أمامها وهو فى نشوة سلطة وانتصار!

كان قلبها يسبق خطوها إلى مكمنها وقدماها تتقدمانها فى عجلة . . فهناك تجد نفسها . . يتركز فى رأسها فكرها المشعث . . هناك تجد وحدتها التى ألفتها وأنس قلبها بها . . تجد حريتها فى انتظارها؛ فلا تتلصص إلى فكرها العيون؛ ولا تطوقها الجمل المنسوجة من خبث القول؛ تلتف حولها كحبال الصيد لتوقعها فى الهوة المحفورة، المعدة من قبل!

على الفراش الفقير الذى ربطت بينه وبينها أواصر ود وألفة، ألقت بنفسها تستريح، كالعائد من رحلة غربة بعيدة! . . أسندت ظهرها إلى الحائط الملاصق وألقت برأسها إليه فى إعياء . .

دوامة هائلة كالإعصار تدوّى فى داخلها، ويبرز فى أعماقها السؤال المجلجل بالهول الذى عذبها بشأن أخيها الأكبر طوال شهور انطوت فى هذا الجب السحيق: «ترى ماذا يبيت المجرمون له؟» وقد أعياهم سموقه، وأضج مضجعهم ثباته الذى لا يلين تحت وطأة الأهوال والكروب . . ذلك الذى ساوموه على ذهب المعز كله فأبى . . ذلك الذى قال لهم ما قاله قائده الأعظم من قبل قرون وقرون: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته».

أمام عينيها المقفلتين وبصرها الغائب تتداعى جحافل الصور . . تأتى

من سراديب ماضٍ بعيد طمرته خلفها مسيرة الزمن، ومن أوهاق حاضر قريب لم يجف د مه!

هناك فى أعماق عمرها الغض تراه وهو عائد فى ظلمة الليل الساجى بعد انتظار يطول لا تغمض لها فيه عين. . تستقبله بذراعيها المفتوحتين وقلبها اللاهف، تدفن وجهها فى صدره وتلقى بنفسها فى أحضان حبه الأبوى الفسيح. . ليلة تلك ماتزال تذكرها حين دخل إليهم ساهم الوجه مكتئب النفس، ملامحه عاجزة عن أن تهش لها وتحتفل بها ككل ليلة. . لقد أصغى قلبها لذلك الحديث الذى قصه على الجمع المتلهف لمعرفة ما يجرى وما يغمض؛ دون أن تدرك حينذاك أعماقه. . قال: «الليلة استطعت وأنا معهم أن أعرف كثيرا مما وراء الأستار؛ إن وراءها يدا للعدو؛ كل ما فى الأمر أنه يتمتع بذكاء بالغ عرف به كيف يوظف المعطيات كلها لحسابه. . أردف بعد لحظة صمت. . الرجل الطيب على قمته ليس إلا لافتة. . لافتة مؤقتة. . لكن الأمر كله مع آخر؛ له الكثير من ملامح الذئب؛ لا يتحدث فى الاجتماعات إلا قليلا. . حتى عيناه لا يفتحهما إلا نادرا، فلا يملك أحد أن يدرك أفكاره؛ حتى ردود الفعل الصامتة لأحاديث الآخرين لا يبين منها شىء على وجهه! . «مصيبة كبرى». . «فتنة كبرى» كتلك التى نسجها الأعداء من قبل للدولةالخلافة. . لها نفس أهدافها، والرجل يشبه رجلها أيضا! . . ولسوف يكون لها نتائج خطيرة على المنطقة كلها كما كان لتلك نتائجها الخطيرة! . سكت قليلا ثم أردف. . «أتوقع معركة ضارية مع الإسلام الناشئ؛ فالعدو الأكبر يعرف جيدا أنه لا يملك تحقيق أهدافه فى المنطقة إذا قام للإسلام وجود حقيقى!».

فى ذلك الوقت البعيد، لم تدرك كنه ذلك السر الذى أحزنه إلى ذلك الحد، الذى لم تعهده منه من قبل، ولم تر يومذاك فيما قال شيئا تربط بينه وبين عيشهم الهانئ المستقر!

الآن تدرك.. بعمق تدرك!.. الآن تكتمل الدورة ويلتقى طرفاها.. وهاهى وأسرتها وجماعتها وهو على رأس الجمع.. ها هم بين فكيها؛ توشك الأنياب المسمومة أن تتلاقى فتتهشم الرؤوس داخل الحصار!.. لماذا اختير هو ليكون على رأس الجمع المستهدف؟!.. أكان ذلك من قدر الله وحده؟.. أم إن اليد الخفية التى تدبر، تحرك الخطو من وراء الستر؟.. وها هم قد أدركوا بعد فوات الوقت أن صفوفهم كانت مخترقة؛ وأن عين العدو كانت ترقبهم من داخلهم!.. أم إنها الغفلة تترامى فى كل فج؟!.. السؤال اللغز يدق فوق الأعصاب المنهوكة، توشك عظام الرأس المكدودة أن تتحطم تحته!.. وحدها تحاول أن تخترق سجف المجهول؛ وحدها تحاول أن تجد التفسير المقنع!

حلقة إثر حلقة تجلوها الأعصاب المشدودة فى ذلك الماضى البعيد، وحلقة إثر حلقة فى محاولات الإغراء والأعداء فى ذلك الماضى تهوى تحت أقدام إصراره الثابت؛ وقد لفت فى إحكام شباكها من حوله.. المال والجنس والجمال، وهو هناك فى بلادهم، تحت أعين الأعداء الكبار.. وهنا بعد أن عاد من رحلته الطويلة.. وهنا منذ أن جاءت الشياطين تساومه بكل طريق.. بالكلمات المعسولة؛ بالإكبار والتعظيم لشخصه؛ فهو أستاذهم الذى بتأثير كلماته الحارة وجهاده المخلص قاموا! وهو أستاذهم الروحى الذى يلجئون إليه حين يحزبهم الأمر وتلتبس عليهم السبل ويدلهم حولهم الطريق، ويحتاجون إلى الرأى المخلص السديد!!.. وهو أيضا أملهم فى مستقبل ناصع ثابت الخطو فى طريق

الحق! . . فإذا لم تنزلق الأقدام فى معسول الكلام الحلو فبالموقع المرموق فى المناصب الكبرى . . بالسلطة تتدرج حتى تصل إلى المنتهى!

كم من المرات ساومه ذلك الذئب الغادر . . كم مرة لوح له بالمنصب الرفيع فى مشروع الحزب الواحد . . يتولى فيه قمته فهو وحده الصالح لتلك القمة! وهو وحده عندهم موضع الثقة التى لا تتعرض للشكوك! . . الحزب الواحد يتولى الحكم فى هذا البلد المنكوب حتى يكون فى قبضتهم؛ فيكون رئيس الحزب رئيسا للسلطة، ولتبقى رئاسة الدولة ملكا للفاتحين؛ فهى يجب أن تبقى دوما محفوظة لأصحاب النجمة!

ماذا بقى لديهم؟ اما الذى يمكن أن يعرض أكبر من ذلك ليحتويه؟! . . ليملك تحطيمه بعد ذلك حين تتم الصفقة وتستوى اللعبة! . . حتى يتحطم المثل؛ حتى لا يبقى فى الساحة أمل فى أصحاب مبادئ! . . حتى لا يبقى فى الساحة رجل يرفع صوته، يقول كلمة حق، يمكن أن يوثق به! . . حتى يثبت للناس جميعا كيف يتهاوى أصحاب الدين أمام إغراءات السلطان وأبهة الدنيا! . . حتى يستقر فى القلوب أن النفاق هو وحده الرابح فى الميدان، وحتى يستيقن الكل أن حملة المبادئ الكبيرة ما هم إلا عبيد من عبيد الدنيا ككل العبيد وأشد دناءة!

فشل تقدير الذئب الغادر؛ فقد رفض العملاق الصفقة! تهاوى فى ناظريه خشاش الأرض؛ رأى المنصب والسلطان وأبهة الدنيا أهون عليه من شراك نعله! واختار مكانه فى فيلق الحق الأكبر! لا يملك مالا، لا يملك جاها، لا يملك سلطة!

ماذا بقى لمكر الذئب الغادر فى هذا الإنسان الزاهد؟! ماذا يفعل

لإذلال «الكلمة» وصاحبها العملاق بما يحمل من عزة دين الله؟ . . تهاوى المعز وذهبه تحت أقدام الحق الأعزل؛ لم يبق إذن لرؤوس تعلو فوق الإغراء الباطل فى الساحة غير السيف! . . السجن الباغى بالسنوات يطول . . التعذيب الوحشى الفاجر . . وحبال مشانق ينصبها الكفر الحاقد، يسنده حقد محموم يفرش وجه الأرض! . . ماذا تنتظر إذن؟!

أنفاسها تضيق ، تضيق حتى تختنق، يكاد ينطبق الصدر عليها، والجدران الشاهقة تتقارب أطرافها توشك أن تطبق فوق الأضلاع، وقضبان الفتحات الصغيرة فى أعلاها تنفث اصفرار المغيب، تعبئ به الفراغ الصامت حزنا وتطوق نبضات القلب . . وعلى مد البصر تصطبغ رقعة السماء بدماء الغروب؛ والشمس تهوى بعيدا خلف الأفق لا يلحقها النظر . .

الآن تدرك سر ما عذب قلبها ودمر أعصابها وأحال عمرها فتاتا كفتات الهشيم طيلة تلك الأشهر الطوال . . والآن تجد التفسير لذلك اللهاث المسعور فى مكاتب التحقيق حول ذلك الهادئ السمح الصامد . . أعمق جذر هو فى وجودها . . ماذا لو فقدته دنياها الباقية؟ . . كيف ستبقى، حتى للحظات بعده، فى عيش يخلو منه! . . كيف تظل تعيش بغير جذور؟! . .

لكن الأمر كبير، أكبر بكثير منها ومن دنياها، فهو ليس فردا، مجرد فرد، حين يذهب تفقده أسرة، يفقده حبيب، لكن هو فكرة، هو رمز، هو عالم فى مواجهة هذا العالم المتردى، هو نور، بصيص نور فى إطباقة ظلمة . . كيف تكون خسارة هذا العالم والمثل السامق يجلو عنه . . كيف تكون خسائر هذا الحق الناصع حين يغيب هذا الركن الهائل من أركان

نصاعته وصموده فيحل الغبش المقلق يكسو الساحة . . وكيف تكون خسارة السالكين فى أدغال الظلمات حين تتكاثف الغيوم وتتشابك الأشواك ويفقدون الدليل؟!

تتذكر . . أسراب من وقائع تخرج من مكامن بعيدة فى ذلك التاريخ، تتلاقى عند عينيها المقفلتين وأعصاب رأسها المشدودة . . فى الواقعة الأولى بينهم وبين الوحش الغادر؛ حين توسط وسطاء كبار لتخفيف الحكم عليه . . ماذا قال لهم الرجل الذئب ليبرر جرمه الذى ينوى تنفيذه؟ قال إن ذلك الشخص على وجه خاص لا يحب أن يحدثه أحد بشأنه! قال إنه هو الرأس المفكر للعصبة! قال إنه «رأس الأفعى»! . . قال: بغير زوال الرأس سيبقى الجسد يعيش، ينمو، يفرض وجوده، يسد الطريق أمام خطوه! قال: لابد من إزالة هذا الرأس الجامد ليتخلص من هذه الجماعة، التى تفسد الطريق على مشروعاته!!

حينذاك، لم تسعف أقدار الله القتلة، لم يستطع الرجل الوحش تنفيذ مرامه لظروف أكبر من حقده، أضمرها فى أغوار القلب الأسود حتى تخلو الساحة من عائق! . . ياللكيد المحرق! لا ينسى أبدا أحقاده، لا ينسى مهمته الكبرى . . ترى سوف تمكنه اليوم أقدار الله؟!

من أول مرة وطئت قدماها أوكار التعذيب، فاجأها هذا الحقد الغارز أنيابه فى قلوب الطغمة! كل واحد منهم كأنه ينبض بقلب الذئب الغادر! . . لماذا يجتمعون على هذا الحقد الأسود وعلى هذا الكيد؟! . . لماذا يتركز هذا الكيد على هذا الإنسان الوادع الذى لا يحمل فى قلبه ذرة حقد . . لماذا تنفث قلوبهم حين يتحدثون عنه ضراوة كره وحشى، وتنطلق أيديهم بعذاب كالطوفان لكل نصير من أتباعه، لكل من يحمل

فكره؟! . . ألأن أعداء الله على الطرف الآخر قالوا عن أفكاره إنها أخطر ما ظهر على الساحة منذ استسلم المسلمون؟! . . منذ وضعوا أيديهم فى الأيدى الكارهة لدين الله وساروا فى الطريق نفسه؟! . . منذ ألقى فى قلوبهم الوهن وركنوا إلى ذل العيش، وتركوا سيادة الدنيا لعدو أوغل فى الكفر؟! . . لم تكن تدرك قبل هذه المعمعة التى تخوضها إلى أى مدى توغل أعداء الله من الساحة . . إلى أى مدى بسطوا أيديهم على هذا البلد المنكوب، المغلوب على أمره!

فى أوكار الغدر، تحميهم أدوات عذاب غاشم . . فى مأمن من كل عقاب فى الدنيا، والجمع تحت أيديهم، فاقد القوة مسلوب السلطان، تخلع الوجوه الشائهة قناع النفاق . . تجلجل الأعمال والأصوات بالكفر البين دون رقيب! . . قال لها كبيرهم مرة: أتريدوننا أن نترك أمريكا بكل عظمتها وروسيا بكل جبروتها وقوتها لنسير وراءكم أنتم؟! . . ولما قالت له إننا لم نطلب ذلك أبدا؛ لكن رجونا أن تسيروا فى طريق يرضى الله الذى خلق أمريكا وروسيا معا، وهو أعظم منهما وأقوى . . قهقه حتى غشى؛ ثم أفصح فى صوت كصوت الضبع الغاضب: «كلا أيتها الحمقاء . . لن نسير فى طريق الدراويش! . . سيروا أنتم فيه وحدكم وسوف ترون نهايته عن قريب! . . وها قد أوقعكم «ربكم» فى قبضتنا!!

ألا تدرك الآن أين هم، أى قضية قضيتهم . . أى عدو يلاقون؟! . . ألا ترى كيف يعلن هذا المستنقع القذر عن كفره بصريح القول؟! ألم تعرف أنه هنا . . لأول مرة منذ قدوم الحملة الفرنسية الحاقدة على دين الله . . يمزق كتاب الله ويداس بالأقدام؟! . . أو لا تطمر أذنيها ليل نهار الأصوات الفاجرة تهدر باللعنات، عليهم وعلى دين الله، وعلى هؤلاء

الذين علموهم وملئوا عقولهم بهذا الحديث «الفارغ»، يتوعدونهم فى حقد واغل متربصا . . ألم تعرف من أفواههم أن الأحكام المعدة فى الأدراج تتدرج قسوتها على حاملى هذا الفكر الناصع حسب مدى اقتناعهم به!!

لا تنسى ما عاشت وأينما عاشت ما ذاقته من عسف فى أوكارهم لتبصم على كل اتهام باطل ألقوه على كتفيه وجردوا منه غيره ليدينوه وحده؛ ليتخلصوا من هذا الرأس المفكر الذى أضج مضاجعهم بهذا الفكر الناصع وقد وجد فيه الشباب المقهور مخرجه . . أيقنت، وازداد يقينها فى كل مرة واجهتهم، بما وراء هذه القضية المنسوجة من غزل مشبوه، عرفت أنها دبرت كلها للقضاء عليه وعلى من يحمل هذا الفكر الذى سموه خطيرا . . خطير هو عليهم دون شك، وعلى انتصارات أسيادهم التى حققوها على أهل هذا الدين خلال قرون وقرون . . أيقنت أن معركتهم جزء لا يتجزأ من المعركة الكبرى منذ بدأت فى ذلك التاريخ القديم الواغل فى القدم . . وأن الباطل المهيمن يحارب بضراوة . كله معا، ليثبت أقدامه، وليمحو عن هذا البلد الغافل سمته وتاريخه قبل أن يفيق فيكشف المؤامرة . . أيقنت أن كل رأس يبرز فلابد أن يزال، وأن كل قلب يرفض فلا مندوحة من أن يطمر نبضه . . فكيف تطلب النجاة لمن تصدر لحمل الراية . . لمن رفعها عاليا، وأعلنها مدوية أن لا سلطان فى هذه الأرض لغير الله، ولا مهيمن فوق هذه الأرض غير دينه . . لقد ذهب سلفه الذى أشعل الشعلة وأنار الطريق فى الطريق نفسه!

لكن وا أسفاه . . لا يعرف الغافلون فى الساحة الكبرى شيئا عن هذه الحقيقة، شيئا من هذا الحق، ففى الخارج يمضى الكيد إلى ذروته، فيلبس الباطل بعض أثواب الحق ليتقى الغضبة . . . لا يعلن الباطل عن كفره إلا فى هذا الجب المغلق، بين المقهورين بحد السيف!

الظلمة تزحف . . من الداخل والخارج تزحف . . تتدفق من قضبان الفتحات فى أعلى الجدران، ينفثها الباب الأسود الرابض كجثة شيطان . . الظلمة تفترش الزنزانة، طبقة تعلوها طبقة حتى السقف . . تسدل على جنباتها سجف ليل طويل كئيب . . الليل والظلمات، كم ابتلعا من دنياها . . من ساعات العمر المعدودات!

الحديث الذى دار بين ذلك الرجل وبينها منذ ساعات قليلة فى «خيمة التحقيق» يتناهى فحيحه إلى كل ذرة فى كيانها ويتغلغل فى كل حنية؛ يكمل اليقين ويتم الدورة ويبرز فى أعماق قلبها النهاية المفجعة . .

الكلمات الهائلة الوقع، القاتل مغزاها تدور بها رأسها فى دوامة لا تكف؛ من وراء الصور تتبدى ومن أمامها؛ تزاحم كل الأفكار ؛ تخترق كل اللحظات؛ تلون كل الصور، تلك التى كانت وضيئة فى الزمان البعيد، بلون الليل الكاسح . . الشريط يمر أمام عينيها المغمضتين كشريط السينما؛ والكلمات تقرع الأذنين، تتكرر باستمرار!

قال لها الرجل يسائلها فى تربص وتشف كأن بينهما ثأرا قديما :

ـ ألم تسمعى ما قاله أخوك إلى تلاميذه فى أحد دروسه معهم؟ قالت :

ـ لم أعرف شيئا عن مثل هذه الدروس . .

ـ إذن ما رأيك فى (. . . .)

ـ أخ كريم إن شاء الله .

ـ هو صادق إذن . . تقررين أنت صدقه . .

ـ أرجو الله له ذلك .

ـ إذن هو ليس كالآخر الذى تعتبرونه خائنا . . لن يفترى كذبا على أستاذه .

ـ أرجو الله أن يثبته على الحق . .

ـ إذن فقد كشف لنا عن قول خطير ؛ أخطر ما قال لهم أستاذه فى لقاءاته بهم ـ غرز بصره فى وجهها الصامت يريد أن يخترقه حتى عظامه ـ ثم أردف : أبلغنا أنه قال لهم إن «الانقلاب» . . نعم ، سماه الانقلاب . . لم يعتبره ثورة . . رغم اعتراف العالم أجمع بأنها أعظم ثورة فى تاريخنا . . رغم أنها أول ثورة مصرية صميمة يرأسها مصرى منذ زمان الفراعنة . . قال لهم إن هذا الانقلاب هو جزء من المخطط الصهيونى الأمريكى للمنطقة ! !

ـ . . . .

ـ أرأيت كيف يخالف أخوك رأى الناس جميعا ، حتى رأى أعداء الثورة ؛ حسب المثل القائل «خالف تعرف» ! . . فحتى أعداء الثورة ، أصدقاؤه ، يتهمونها بالشيوعية ! . . أرأيت كيف يسمم أخوك عقول الشباب . . أرأيت مستوى الجريمة التى يرتكبها فى حق الوطن . . ألا ترين أنت بنفسك أى درجة من العقاب يجب أن يؤخذ بها . . هل توافقين على مثل هذه الخيانة ؟ !

الكلمات السامة تغرز أسنانها فى كل عصب ، فى كل مضغة لحم بقيت ، وتخترق العظام ! . . لماذا أفشى القول هكذا ذلك الصديق وما تشك لحظة فى أمانته ؟ ! . . لماذا وضع فى أيديهم الفتيل لتنفجر القنبلة الموقوتة بأيديهم ؟ ! . . لماذا قال لهم ما يمكن أن يتذرعوا به وهم العدو الصارخة عداوته ؟ ! . . ألم يدرك بعد أن هذا هو الأمر الذى لا يجوز

لأحد لمسه؟! . . الآن على الأقل والجريمة لم تتم خيوطها بعد، والدولة اللقيطة كالخنجر في قلب الأمة لابد لها أن تنساح في أرض المستضعفين . . ليتم التدبير في صمت، في غفلة من كل عين، خلسة من وراء الغافلين، ليؤتي أكله كاملا بغير تعب! . . ألم يعرف من خلال أحداث الواقع القريب ماذا حدث لكل من سولت له أمانة ضميره، أو خصومته مع رأس العصبة، أن يكشف طرفا من هذا الأمر؟! . . لماذا إذن أعطاهم الوقود الهائل لشراسة أحقادهم؟!

في الأعماق يتفجر السؤال الرهيب يغوص في سجف الغيب الملتف وراء الحجب: لماذا يتجاور الصديق والعدو في هذا الواقع المفجع، على بعد الشقة بينهما؟! . . لماذا يتعاضدان على غير اتفاق لتنفتح الهوة السوداء وتفغر فاها، وما يجمعهما قط طريق؟! . . أتراها إرهاصات لقدر الله الذي لا يغلبه شيء؟! . . تدعو، تدعو حتى يتفطر منها القلب . . لا تملك غير الدعاء . . لا تملك غير دموع تسفحها بين يدي من يملك، من يقدر الأقدار، من بيده ملكوت كل شيء . .

ترفع يديها عن عينيها المطبقتين وتسترجع . . تحاول أن تسد الطرقات على الأفكار المحمومة . . عبثا تحاول . . الكلمات تروح وتجيء بغير انقطاع . . الأفكار تمرق . . تخترق شرايين الرأس، تدفعها قوى خفية . . لا تتحكم فيها . . تستسلم . . تداهمها الأفكار تنضح أسى: «هل كان عليه أن يكون أكثر حذرا . . أن يختبر الأرض بدقة قبل أن يضع قدمه . . هل كان عليه أن يرفض التكليف، والتجمع لم ينشأ بعلمه ولم يترب على عينه . . هل كان عليه أن يؤجل - على الأقل - الإفضاء بهذا القول الكبير حتى يستوثق من الخامة، من نضج المسيرة، حتى يستيقن من رشد الجمع الذي مازال في المهد؟! . . لماذا تعجل . . لماذا حملهم من العلم فوق ما

تطيق أدمغتهم؟! . . هل أخطأ؟! والخطأ عند القمة خطير، يتكاثف وقعه، تتفاقم نتائجه. . أسنان لهيب تغرز فى القلب الملهوف على قارب نجاة، تدمي. . تدمى حتى أعماقه. . لماذا قال لهم هذا الأمر الكبير وفيهم بعد قلوب لم تنضج، وفيهم من لم يدرس بعد تضاريس كيانه؟! هل غابت عنه حكمته فى تلك الساعات المقسومة، لأمر فى قدر الله المكنون الذى لا يغلبه حذر ولا تغنى معه حكمة؟!

الماضى يشهد بأن القافلة ماتزال فى أول الطريق؛ وأن فكره البصير يرهص بالأفق البعيد ويسبق الخطو؛ وأن الشوك المتراكم فى الساحة يعرقل المسير ويؤخر النضج. . لماذا إذن لم يأخذ حذره، والهوة السوداء على مرمى البصر تتربص به، وقد بلغه ما قال العدو عنه وما يكنه الذئب الغادر له. . صوته الهادئ العميق الغائر فى قلبها يرن فى أذنيها يردد كما كان يردد عند كل جائحة: ﴿ أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾. . لكن. . ماذا يملك الإنسان، مهما تطاول سموقه، ماذا يملك من قدر الله، والحكمة فيه فوق أفهام البشر؟! . . لكم يفرق قلبها من ذلك الخاطر الذى طالما أرقها كلما طاف بها. . أن يكون هذا الإنسان الكبير لغير زمانه. . مجرد روح عابر. . يطوى اللجة سريعا ثم يغيب، كذلك الروح المنير الذى سبقه، ما إن أشرق وألقى بأنواره الهادية كالكوكب الدرى حتى غاب، وترك الساحة تخبط فى اللجة. . يفزع قلبها أن يكون هو الآخر مجرد كوكب مسرع، يطلق فى الساحة إشعاعات ضياء، يشرق بها الأفق البعيد. . يعبّد الطريق للزمن القادم. .

١٠

لقاء عند قمة المرتقى

قال الرجل بصوت انسلت منه غلظته المعهودة، وتسلل إليه للحظة عابرة خيط رفيع من حنان وأسف: «خذها يا صفوت إلى أخيها تراه»؛ ثم أكمل موجها إليها الحديث بعد لحظة صمت قصيرة: «كما قلت لك، بيدك أنت وحدك الآن إنقاذه.. لن يستجيب إلى إنسان غيرك.. أنت نقطة التأثير الوحيدة في قلبه، وقد قال للطبيب إن شيئا لا يقلقه الآن غيرك.. وعلى ذلك فلن يستطيع أحد سواك التأثير عليه!.. نفذى ما قلت لك.. كلنا يهمنا إنقاذه.. ضياعه خسارة كبيرة للجميع.. للبلد كلها!..».

برهة قصيرة انطوت بعد خروج قائد السجن الرهيب، ثم تحرك الآخر متجها بها نحو المبنى البعيد القابع فى الطرف المقابل من الفناء الشاسع متعدد الأبنية.

رفعت رأسها لحظة تزدرد ريقها الجاف فى حلقها فارتطمت عيناها بقرص الشمس المتوارى يسقط مسرعا فى اللجة الحمراء خلف المبنى البعيد، مخلفا أشعة متناثرة كشظايا الحريق؛ ثم يختفى بعد خطوات قليلة

ويترك الأفق مكانه بركة من دماء! . . ينقبض قلبها الغارق في اللهفة والحزن . . ترى . . أهو اللقاء الأخير! . . أتراهم أرسلوها تراه رؤية الوداع؟!

الكلمات بالخط الأسود الثقيل في الورقة المذيلة بالإمضاء الفاجر تبرز أمام عينيها لا تملك لها ردا . . تنغرز في أعماقها كالخنجر المحمى لا تملك منها فكاكا . . تلوكها ذرات قلبها كلمة كلمة ، كل كلمة منها حفرت في مضغة من نسيج القلب بأسنان اللهب : (صدق رئيس الجمهورية على تنفيذ حكم الإعدام شنقا في . . . . . .)!! . . لماذا يصر الأشقياء على أن يجرعوها كأس السم حتى ثمالتها! . . لماذا عليها أن تقرأها وتعيد قراءتها وتتشرب روحها لهيبها مرة ومرة ومرة!! . . يتلذذون بغمسها في فحيح اللهب وضراوة الحزن!

بصرها التائه في الأفق الذى تناثرت فيه حمرة الشفق يعود . . ينغرز في الساقين أمامه مدثرتين بالحلة الصفراء . . في المشية العسكرية الرتيبة تقتلع الأرض اقتلاعا تحت القدمين . . تتبعهما في سرعة لاهثة لاهفة ؛ ملتاعة حزينة كشاة تساق إلى مذبحها . . مشوقة طائرة كطفلة تدفع إلى حضن أبيها وقد عذبها النوى! . . من تراها هي؟ وفي أى أقدار الله تخوض؟! . . الطفلة؟! تلك التي كانت في الزمان البعيد، منذ تولتها يداه، قبل أن تعي، تنتظره الساعات والدقائق حتى يعود لتلقى بنفسها بين يديه! . . وبعد أن وعت . . ومنذ أن ملأ في دنياها المكان كله، واحتل فيه كل خانة فارغة! . . منذ أن حملها بين ذراعيه وأفرغ حنانه الكبير في قلبها الصغير . . منذ أن احتضن روحها تدرج في حبه الفسيح فلا تعرف معنى لليتم ؛ ولا للحظة واحدة، وقد جمع لها قلبه الواسع حب الأبوين معا ؛ ورعاية الأبوين معا ؛ وعطاء الأبوين معا ؛ والدنيا كلها . . منذ أن

ترعرعت بسقياه كالفرع الصغير من الشجرة الباسقة، يطلق أطرافه فى الهواء وأصله ملتصق مطمئن بساق الشجرة العملاق، واصل إلى نبع الحياة فيه، فلا يملك الحياة إلا بتلك الحياة!

تجرى لاهثة مشوقة ملتاعة إلى هناك.. هناك حيث هو مايزال هناك.. تملك أن تراه.. الحلم الذى أوغل فى حناياها عاما كاملا بغير أمل.. أن تضع يديها بين يديه.. أن تحكى له.. أن تلقى إليه بحملها الرهيب الحزين.. هى التى عاشت حياتها كلها تقص عليه حتى صغائر دنياها.. تلقى إليه بأحمالها الصغيرة كلها فيذيبها فى حنان قلبه الكبير.

أهى هى.. تلك الطفلة المشوقة!.. أم إنها الليلة.. فى الليلة الشوهاء.. وقد حملت عذابات الورى وأكداس السنين.. تذهب إليه تحمل وقرها الثقيل.. تذهب «لتراه»!.. قالها الرجل الوحشى وقد اهتزت منه ضراوة الوحش فى القلب بالحنان الأسيف!.. تذهب لتراه.. للوداع الأخير؟!.. تذهب لتحمل إليه ذلك النذير، خطته اليد الكافرة بالأحرف السود، الغارقة فى سواد الدهور!

من هى فى هذه الرحلة قارسة الصقيع فى قلب الصيف؟!.. من هى التى تخوض فى النيران والدماء تحمل فوق كتفيها حزن أعمار البشر.. وتلهف منها الطفلة البعيدة فى الغور تسرع الخطى ملتاعة إلى صدر الأب الحنون!.. من هى، هذا الكيان العجيب تتلاقى فيه المأساة بالملهاة؛ وفوق قمة الحريق تخفق الراية الحبيبة، راية الجهاد، أعظم الجهاد لأعظم قضية منذ خلق الله الأرض والسماوات.. تسير وفوق عاتقها مسئولية الموقف الكبير الخطير.. مع الله قبل كل شىء.. وحيث قمة التاريخ تنبش الجذور تبحث عن «السابقون» ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾.. ترفعها فى وضح الآفاق منارا للسائرين!

من هذه التى تسير. . خطوة إلى الموت وخطوة إلى الوجود. . خطوة للعذاب وخطوة للنعيم. . وفى تلافيف رأسها الممزق يحتدم الصراع المرير ويبرز السؤال المهول: ما الذى سوف تقوله للشقيق الكبير؟! كيف تلقى إليه بالخبر الرهيب؟! وبالمساومة الدنيئة لتحفظ الرؤوس فوق الرقاب؟!

من هذه التى تسرع الخطى. . إلى المجهول. . لا تعى لأى شىء تساق؛ قلبها يغوص فى كل وجه. . فى اللهفة الحائرة، فى اللحظة الحاضرة، فى الساعة الآتية. . فى الليلة المريرة وفى الصباح الرهيب. . يمزق الحجب فى ستر الغيب المسدل. . يستميت فى الدعاء وتصفعه الأحرف السوداء!

جاءها صوت الوحش السائق كأنما يأتيها من عالم بعيد الغور من وراء الوجود. . قال بنبرة غائرة الجفوة: هنا. . قف! رفعت عينيها فإذا هما أمام مبنى قديم من طابق واحد. . هنا. . هنا تقطن روح الحياة فى عيشها! هنا يعيش الشقيق الأب. . القائد الحبيب. . هنا تبقى لها الحياة والشباب والآمال والمسيرة الصحيحة فى طريق الله. . أو تنطوى كلها ويطمسها الأفول. . ترى كيف تلقاه؟ وبأى شخص من تلك الشخوص التى تتقاذفها تدخل إليه: الطفلة اللاهفة ترتمى فى حنان قلبه الوريف. . أم هذه الجديدة الغريبة وقد أثقلت ظهرها أحمال الدهور؟!

تلملم روحها المبعثرة وتستعد للموقف الكبير. . كيف تلقى إليه بالخبر المرير؟ كيف تعرض المساومة الدنيئة فلا يظن لوهلة واحدة أنها تدعوه أن يستجيب؛ والوحش المتربص شاخص بينهما يرقب الموقف العسير!

لحظات قليلة انطوت والأقدام تدلف داخل المبنى الساكن كأنما فرغ من

ساكنيه . . قلبها هو الآخر قد فرغ من كل شيء؛ من الوعى والزمان والمكان والفكر والشعور . . أمام أحد الأبواب توقف المسير . . قلبها يدق فى عنف وقواها تخور توشك أن تتهاوى . . ثم ينفتح الباب . .

فى داخلها تعوى أنةٌ لا تعى كنهها ، تنفجر كالشظية تمزق الوجود كله . . وعلى وجهها تتراءى بسمة تحمل كل أعماق اللهفة والحزن . . هنيهة صمت تمضى فيأمرها الرجل أن تتكلم . . تنطلق من فمها الكلمات قوية متماسكة بغير تحضير سابق ، ياأخى ، لقد كلفت أن أوصل إليك رسالة ، فها هى . . مطلوب منك أن تكتب بضع كلمات تقول فيها إن هذا التنظيم متصل بجهة أجنبيه ! . . وهذه الجهة هى دولة عربية محددة . . ثم يخفف الحكم بالنسبة لك ، إلى أن تخرج بإفراج صحى ، ثم يلغى الحكم تماما بالنسبة لى !

أشرق وجهه الذى فاجأها ذبوله بابتسامة هادئة وأجاب بصوته العميق الذى تحفظ نبرته ، فتنفذ الكلمات إلى قلبها حتى أعماقه البعيدة وتنطبع هناك . . قال : «لو كان ذلك حقيقة ما منعتنى قوة على الأرض من أن أعلنها ؛ وحين يكون هذا لا حقيقة له فلن ترغمنى قوة فى الأرض أن أقوله ! » .

اكفهر وجه الوحش الذى يسد الطريق بينهما وألقى على الوجه الهادئ نظرة تقطر حقدا ثم قال موجها إليه الحديث : «ولكنك سوف تدفع الثمن غاليا» !

لم تتغير البسمة السمحة وهو يجيب : «الحياة؟ . . الحياة ليست غالية فى سبيل الله ! . . ثم إن الحياة يملكها الذى وهبها . . هو الذى أعطاها ، فإذا أراد يوما أن يستردها فمرحبا ؛ فهى منه وإليه . . » .

قاطعه الرجل ذو الوجه النمرى موجها إليها الحديث: «والآن. . لسوف أذهب وأتركك معه. . بعد ربع ساعة سأكون هنا لأعيدك إلى زنزانتك»». . ثم تحرك خارجا وأغلق الباب!

لحظة صمت تائهة تغمرها، ولكن بسمته المشتاقة وذراعيه المفتوحتين تنسيها للحظات قليلة هول الواقع وضراوة الموقف الرهيب فترتمى على صدره. . تنشج فيما يشبه الفرح. . والحزن. . ثم يغرقها غياب مريح. . أين هى. . وهو. . وذلك الذى يحيط بها. . وبه. . والواقع؟. . والحلم؟. . فى الدنيا. . فى الآخرة. . فى العالم المألوف؟!. . فى أى مكان يدور الحدث. . وفى أى زمان؟!

ولكنها تصحو. . سريعا تصحو!. . فالدقائق المعدودة تنسرب من بين يديها. . وسيأتى الوحش الكاسر ينتزعها. . والهول المرتقب. . وأكداس حديث مختزن حال عليه الحول. . أتلفه الصمت وتقرح فى أغوار القلب. . وسؤال لاهف حائر يطوق الشعور: ماذا سيكون فى الغد؟! ماذا سوف يحمل إليهما الصباح القريب؟!

جلس وأجلسها بجواره على طرف فراشه. . آه. . لو طال الحلم. . وطال العمر. . وبقيا حتى رحلا. . معا؛ لو يتوارى الغد من التاريخ. . من أيام الأرض. . حتى تغرب شمس العمر. . لو تمسك بالزمن الباقى. . لو يوقف سير اللحظة تلو اللحظة. . لو يقبضها الموت فلا يأتيها الغد!. .

ولكن صوته الودود المطمئن ينسرب إلى أذنيها رائقا فترهف السمع: «يا بنيتى الحبيبة، عندى لك حديث طويل مختزن منذ افترقنا. . لكن

الوقت المحدد لنا لن يكفى الآن لقوله، ولسوف أقوله لك حين نلتقى! . . لسوف تحيين بإذن الله، ولسوف تحتملين وتصبرين . . لقد صليت وكان قلبى مستغرقا مع الله، ودعوت لك دعاء طويلا، أحسست وقتها أن الله قد استجابه لى . . ».

قالت واللهفة تهز كيانها كله: «ألا يمكن أن يكون قدر الله غير ما أراد الأشقياء؟!».

قال وهو يربت على جسمها المرتجف وروحها المروع: «يا صغيرتى الحبيبة، لا نستطيع أن نعرف قدر الله إلا حين يجىء . . ولكن علينا أن نستبشر به لأنه من عند الله، ولأنه دائما الخير . . ».

صمت برهة قصيرة ثم أكمل: «كان أمامى إمكانية الهرب إلى خارج البلاد وقد أعد له كل شىء بإحكام؛ ولكنى رفضت ذلك . . رأيت أن البقاء فى ميدان المعركة بكل نتائجه أجدى لمستقبل هذه الدعوة من الحل الآخر . . ولسوف يصنع الله بهذا الحدث - لو كان فى قدره - أشياء رائعة لهذا الدين إن شاء الله . . ثم إن لى هنا أصحابا، لا أقبل أن أتركهم وأنجو بنفسى!».

هزتها الكلمات من رأسها إلى إخمص قدميها . . اخترقت روحها حتى أغوارها البعيدة وأطلقت فيها دوامة لا تهدأ . . نعم . . فلقد عاشوا حياتهم لهذا الدين . . وسوف يرحلون إلى الله به . . ومن أجله؛ هذه أعماق تمنياتهم . . وليس لهم أن يهربوا من الميدان . . ولكن . .

قالت: «ملء قلبى الرضاء بأقدار الله . . منذ لحظة نطق الحكم ونحن هناك نواجه المجرمين . . ولكن الصبر . . الصبر عسير عسير . . وأنت تعرف من أنت بالنسبة لى . . وتعرف أن حياتى تفقد وجودها . . بل

تتعذر حين لا تكون فيها . . » قبل جبهتها فى حنو وغامت عيناه بدموع أمسك بها بسرعة حتى لا تراها!

أمسكت بيديه تقبلهما وسألته فى لهفة : «حدثنى عن شعورك بالغد، فأنا أعرف أن قلبك يصدقك، يرهص دائما بما سوف يأتى فى الغد القريب!».

قال وقد سبح بعينيه العميقتين الصافيتين بعيدا كأنما يستشرف الغيب. . قال : «لا أدرى . . ولكننى أحس صفاء ورضاء وبشرا وانطلاقا لم أشعر به على هذا النحو طيلة حياتى السابقة!!».

غمغمت وقلبها يذوب فرقا : «لعلها النجاة من أيدى الفجرة؛ فلا يجعل الله لهم إليك سبيلا . . ألم يقل الله سبحانه إنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا!».

قال وهو يربت على يدها : «ليس هذا يا بنيتى الحبيبة، ليس على أجسامهم ولكن على قلوبهم وأرواحهم . . وقد انتصرت أرواحنا بفضل الله على كيدهم، ونجونا من كل أحابيلهم، وصدقنا الله بعونه على ما وعدناه».

الدقائق تمر . . تنطوى الخمسة عشر دقيقة ولكن الرجل لا يجىء . . تلف مشاعرها دوامات غيوم ويتزلزل اليقين فى الواقع المحيط . . الأشياء . . كل الأشياء . . وهما وهم . . والزمن والمكان والأحداث . . كلها ترتج فى حسها، تعوم فوق مياه رجراجة لا حدود لها . . تطفو لحظة وتسقط لحظة . . ثم تعود من جديد . . أهو حلم مفزع . . أو حكاية مرت منذ زمان بعيد؟! . . أم قصة قرأتها ثم غابت فى طوايا النسيان! . .

تصحو على صوته . . صوته يعيدها بسرعة إلى الواقع ثم ينتشلها

منه . . يحدثها فى أوجه عديدة وتحدثه . . ماذا إذن . . ها هما كما كانا فى الزمان القديم . . آمنين يتبادلان الحديث الرائع المليء بالسموق ! . . حكى لها شيئا مما أجابهم به . . حكى لها كيف أخلى كل الذين تنصلوا من كل اتهام ليحمله هو . . كيف دفع عنهم كل مسئولية كانت لهم حتى لا يمسهم ضر . . حدثها عن رغائبه ونصائحه لهم فى مقبل دنياهم . . حديثه الغنى يملأ القلب والحياة والعمر . .

العمر ؟ ! ما هو العمر ؟ وقد أوشك القارب على الرحيل ! . . تحاول أن تنسى . . تحاول أن تستقر . . أن تثبت الأشياء التى تميد . . أن تستمتع باللحظة الحاضرة . . كيف ؟ ! كيف تستقر . . والأرض تحت قدميها تميد . . والموت ؛ الموت يتراءى فى أفقها القريب . . كيف واللحظات تمضى لاهثة إلى الغد القريب لا يمسكها شىء . . ترى . . ترى كيف يكون لونه . . ذلك الغد القريب ؟ !

الأقدام الثقيلة تسحق فراغ المبنى الساكن فينخلع قلبها . . بعد لحظة صغيرة لسوف يسقط الموت فوق لحظات الحياة !

فى فمها تجف الكلمات وهى تغمر وجهها فى صدره ترجوه أن يدعو الله من أجلها ، بكل حرارة صلته بالله ، أن يكون قدره غير ما يبيت الكافرون . . اللحظات لا تسعفها فلا تكمل الدعاء والرجاء . . ينفتح الباب بقوة . . يخترق أذنيها الصوت الأجش : «هيا ؛ لقد تركتك معه ضعف الوقت المسموح به . . لا تكونى طماعة ! » .

لطمتها كلمات الوحش ونبرته . . لا يعرف هؤلاء معنى للإنسان ! قلوبهم صيغت من صخر أصم ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ! . . أجسامهم كأنها الخشب المسندة . . تمر آيات من القرآن على

خاطرها دون أن تنطق بها : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم . . . . أولئك كالأنعام بل هم أضل . . . ﴾ . . كانت آيات القرآن من قبل كلمات . . أما الآن . . فها هى حية شاخصة ، مجسدة أمام ناظريها ! . . لو يعلم هؤلاء كيف هم يرونهم ، كم يحتقرونهم حتى أكبر كبرائهم ! . . وفى أيديهم السياط والمشانق وكل أدوات العذاب . . المشانق ! . . تنطلق من قلبها شهقة مروعة فتبتلعها بقسوة هائلة . . تسترد رباطة جأشها بسرعة والبركان يمور . . تسلم فى سكينة راضية كأنما سوف تلقاه فى الصباح القريب . . تخرج تحملها ساقاها بنصب كبير تحاول أن تخفيه . . ويغلق الباب خلفها . .

****

لو كانت وحدها . . لو لم يكن هذا السائق الوحشى معها . . لو كانت تملك حرية البكاء . . لأجهشت بكل ما تبقى لها من حياة !

ساقاها ، ترطم إحداهما بالأخرى فى غير نظام . . فى إعياء قارس تحاول أن تقطع الطريق الطويل . . كلماته ترن ما تزال فى أذنيها ، تحفظ نبرة صوته كأنها ولدت معها ؛ تحفظ أسلوبه الآخذ كأنما صيغ نسيج قلبها منه . . كيف سيكون عيشها إذا فقد وجوده ! . . تدعو تدعو . . لا تملك غير الدعاء . . ترجو الله أن يبقيه لها ، من أجلها . . لينفلت روحها المعذب من أوهاق كيدهم الذى تزول منه الجبال . . لتبقى صامدة فى الطريق الطويل ، الملىء بالشوك والعذابات والدماء . . كيف تصمد إذا غابت عنها كلماته . . إذا غابت عزمة العملاق ، إذا اختفت من دنياها صلابة اليقين . . يا لفداحة الفطام المعجل . . بل الفصام المرير ، ولم يعد قلبها له عدته رغم كل ذلك الهول المحيط ؛ رغم النذير تلو النذير !

لم يعد له قلبها عدته؟! . . وماذا كان قلبها ينتظر حتى يعد له عدته؟! وهى تغرق عاما كاملا فى نيران تدبيرهم الشيطانى، تحصى ألوانه ولم أطراف كذبه وتعانى الأهوال لتدفعه عنه في مجازر التحقيق. . كيف تنسى عذابات ذلك العام الطويل وذلك الفزع الذى دمر أيامها ولياليها أشد من كل أهوال العذاب. . كيف تنسى صوت الوحش النمر تسمعه يجلجل من بعيد قادما يأخذها إلى مجازرهم فتخور قواها وهى فى فراشها! . . كيف تنسى استدعاءاتهم لها في الليل والنهار لا تحصيها فى محاولة مستميتة لإثبات التهمة الكاذبة وإحكام الخناق!

لقد استوعبت ذلك كله وعرفت ما يبيت له منذ أول لقاء بالزبانية المكفنين بالحلة الصفراء، يقطر الحقد من عيونهم، ويجلجل سعار البغض فى أصواتهم، وهم يحبكون حوله الاتهام تلو الاتهام، ويسددون حوله وحده وأنصاره السهام، ينفذون في ولاء العابد مطلب الشيطان!

كيف تنسى وكيف لم يعد له قلبها عدته والنذر من حولها تطوق القلب وتنزع عن العيون كل إغماضة جفن، ألم تر كيف أن بيته وحده بين بيوت الجمع هو الذى حوصر واحتل بالجند المدججين بالسلاح وقطع بينه وبين العالم كأنه هدف عسكرى فى ساحات القتال!

تنسى! . تحاول دوما أن تنسى. . ولكن أنى لها ذلك، وقد تحقق لها بألسنتهم أن تلك الأحكام قد أعدت قبل المحاكمة الصورية التى جرت لإقناع الجماهير الغافلة؛ وقد قدرت كلها على أساس من اعتناق فكره؛ وقد سموه الخطر الماحق الذى سوف يعود بالبلاد والعباد إلى عهد الظلام بعد أن تحرر الناس من ربقته! قالوا إنه يرجع إلى الأصول البالية، يسلب الإنسان كرامته وسلطانه وقد شب عن الطوق وحكم نفسه بنفسه! . .

قالوا سوف يطمس «الحضارة»» ويسلم إنسان بلدنا لتاريخ جاهدناه حتى أخضعناه لحضارة النور فى القرن العشرين! . . قالوا كل ما قال الكفار فى جنبات الأرض وتلافيف التاريخ!

تتناسى! . . تحاول ذلك وتحاول طوال العام. . ليمسك قلبها بأطراف الرجاء. . ليهدر قلبها بالدعاء. . لتحتفظ بموقفها الصامد لا تستسلم تحت مطارق العذاب. .

هل تنسى؟! كيف تنسى ما بقيت ما قاسته فى مكاتب العذاب من عذاب لتضع بصمتها فوق كل تهمة مفتراة! . . وهل تنسى ذلك اليوم المفزع الذى أطبقت على قلبها وقائعه كالجبال، تسحق كل أمل وتخنق كل رجاء إلا رجاء فى الله. . القادر وحده أن يسحق كيد البشر. . حين أخبرها أحدهم أن التحقيق قد توصل إلى الإدانة الكبرى، حيث يصم شقيقها كل عهود العسكر فى المنطقة بأنها جزء من مخطط لئيم لتمكين العدو من رقابنا ومن مقدساتنا ومن أرضنا. . وقتها استيقن قلبها من ذلك المصير؛ فالغافلون يجب أن يظلوا غافلين؛ لتتم الصفقة وتنفذ الخطة وتتحقق الهزائم المنكرة وتنجح اللعبة الفاجرة ويبقى الخونة أبطالا والأبطال خائنين!

قرقعة السلاح يطلقها حارس المبنى، تنتشلها بغتة من ثقلة أفكارها المزعجة. . جسمها كله ينتفض وتسرى فيه رعشة كقر الشتاء. . الصقيع يغمرها ويسرى فى أعضائها كبرد الموت رغم قيظ الصيف. . بعد لحظات ستعود إلى مقرها الموحش، ولسوف يغلق الباب وتطبق الظلمة وتفقد كل ومضة ضياء فى القلب وفى العالم المحيط؛ حتى هذا الفراغ الذى تتحرك فيه قدماها وتدور فيه أفكارها؛ الفراغ الذى يصلها به ويوقر فى قلبها قربها منه ويشدها إليه بخيط من رجاء!

تتذكر فجأة . . فاليوم، قبل ذلك الهول المكتوب، كانت تعيش فرحتها الأولى بعد عام العذاب؛ كانت تعيش ساعات كساعات عيد؛ حين جاءوا إليها بزميلة الطريق لتعيشا معا بعد أن انتهى «التحقيق» والتعذيب وتحقق الحكم الطويل؛ بعد شهور قارسة من وحدة كابية، وقتها كان يبزغ فى قلبها الرجاء بغير سند، إلا رجاء فى قدرة الله . . وقتها أحست للحظات مفتوحة أن محنة عيشها قد ولت؛ وأنها سوف تحيا منذ اليوم فى رحاب ودّ حنون مع هذه الأم الرءوم؛ تعوضها عن سكن العيش فى الأهل والعش الآمن . . ترى كيف حالها الآن فى أول أيامها معها؛ وقد أخذها الزبانية منها هذه الساعات فلا تدرى أين ذهبوا بها!

كانت قدماها تدلفان نحو الزنزانة المغلقة، وقلبها غارق فى أفكارها المشعثة بغير نظام . . على غير تأهب وجدت نفسها أمام الباب المغلق بسواده الذى ألفته، تتفحم به أغوار العمر! . . ينفتح الباب وتدلف القدمان فى الضوء المتلصص الزاحف من فتحته فى أرض الغرفة . . تهتدى توا إلى الفراش فتحط إليه بجسمها الذى ينهار كما ينهار جبل مثقل بالصخور!

قالت الأم الحنون وهى تتلمس وجهها فى الظلام بيديها: «أين كنت يا بنيتى . . ماذا فعل بك هؤلاء اللئام؟!» . . جاءها الصوت كقطرات مطر ندى فى يوم قائظ، فألقت برأسها على الصدر الحانى وأجهشت بالبكاء . .

من خلال الدموع الغزيرة حكت لها قصة الوريقة الغادرة وقصة اللقاء؛ ومن خلال الدموع، تتساقط على رأسها، هدأت الأم قلبها المروع

وهى تعيد وتعيد: «يا بنيتى، الأمر كله ليس للفجرة الطغاة؛ ولكنه لله . . وحده المالك . . وحده الحاكم . . وحده الله» .

تعرف . . تستيقن حتى الأعماق . . ولكنه الستر المسدل، تقرضه الساعات . . الساعات القصار حتى الصباح . . ما أجل رحمة الله حين قدَّر ألا يكشف عن وجه الموت حتى لحظة القضاء . . وما أبشع قسوة العبيد حين يفجرون . . حين أغرقوها فى سعير اللحظات تلو اللحظات!

هل تنام؟ . . فقد نامت الأم الرءوم وتناهت أنفاسها المستغرقة إلى مسمعها؛ وخلا الجو من قلب معين، وترامت الوحشة تغرق الأرجاء . . تنام؟! . . وهل فى طوقها أن تنام؛ والحياة الباقية كلها ساعات قصار؛ واللحظات تنسحب من بين يديها تسحب فى طياتها ذرات قلبها؛ والوجود! . .

فى ستر الظلمة الكاسية جلست فى الفراش وأسندت رأسها للجدار . . قلبها الغارق فى أرقه . . المشعث فى لجة الهول المحدق، ينبش فى ظلمة السدر المسدل . . ترى هل تحدث المعجزة! . . ترى هل يكون قدر الله المخبأ غير ما يبيت المجرمون! . . ترى هل يستجيب لها الله حرقة الدعاء اللاهف طوال عام كمئات السنين؛ فيأتى الصباح إليها بوجه حنون، ويأنس قلبها مرة ثانية بالرفقة المرتجاة طوال عمرها الباقى . . ولو فى ظنون الحلم؛ ولو فى دقائق «الزيارة» اللاهثة التى عذبتها خلال السنوات العشر العجاف؛ وسط أعين الرقباء، حيث قضت عيشها تحلم بالأمن الرغيد وهو بينهم، فى بيتهم يعيش، يثرى عيشهم بهذا الوجود الخصيب!

كيف . . وقلبها يرهص بحزن أيامها . . بالغياب الثقيل؛ كيف والحلقة قد أطبقت، والشباك المسمومة قد أحكمت فى لجة الموج العاتى والمكر

السيئ يغرق الوهاد . . كيف وفكرها اليقظان فى ساحة الهول يحصى فى كفة الرعب ألف نذير . . كيف وذلك القلب الحقود لا ينسى حقده مهما أعطى من عهود، كم أعطى شقيقها فى عهده الأول من عهود، وكم أعطى للناس وكم أخلف من وعود . . والغدر شيمته، والانتقام الحاقد طبعه الأصيل ! !

هل ينسى ذلك الذئب اللئيم لهذا الإنسان الذى رمته أقدار الله فى قبضته، أنه هو وحده الذى كشف أبعاد اللعبة، والجمع الساهى مبهور بحبكة المسرحية يضرب فى تيه قول النفاق، أو يستنيم تحت مظلة النية الطيبة ! . .

هل ينسى له كتاباته العديدة قبل أن يحكم قبضة رقابته على كل حرف، تسلط الضوء على أفعاله المنكرة؛ تكشف ملامح العدو الرابض خلفها، والغافلون سادرون فى نشوتهم، والفاهمون مستسلمون صامتون ! . . هل ينسى أن هذا الرجل مع القلة النادرة قد رفعوا الرؤوس أمام جبروته المخيف الذى يعتز به، واستخفوا بسلطانه الذى يسود به، بعد أ ن عنت لسطوته كل الرقاب . . وهل ينسى له العدو الكبير، القابع وراء الستر، المحرك لأيدى العبيد الضالعين فى الجرم، هل ينسى أن هذا الثائر الجديد هو الذى أعاد وضع النقاط فوق الحروف ثم أعلنها مدوية، بعد أن تعب الحاقدون فى محوها القرون بعد القرون!

كلماته . . تحبها . . بكل قلبها تحبها . . تحفظها عن ظهر قلب، ولكنها الليلة كأسنان السهام . . كالمطرقة . . تدق فوق قلبها كالمطرقة : «كل فكرة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان» . . «كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا متنا فى سبيلها وهبت لها الحياة» . . «أحس أن تنفيذ الحكم أجدى لهذه الدعوة من تخفيفه» ! . . «ولسوف يصنع الله بهذا الحدث ـ إن قدره

الله ـ أشياء رائعة لهذا الدين»! . . فهل يرد الله نفسا باعها صاحبها على هذا النحو . . من أجلها . . من أجل قلبها الذى يسحقه الهول وتمزقه الدعوات اللاهفة! النذر تطن فى أعماق روحها كزوبعة الريح العاتية . . نعم . . الأمر ليس لهم . . ليس بإرادتهم وإن كان بأيديهم . . ذلك حق اليقين . . هو بيد الله وحده، فالذى وهب الحياة هو صاحب الحياة؛ حتى لو ظن «النمرود» أنه يحيى ويميت، هو قدره وحده ولكنه يسلط به الفجار على أنفسهم ليحملوا أوزارهم كاملة . . فهل يتركه الله يعيش غريبا فى اللجة؟ . . سامق الفكرة نافذ الرؤية مفرد النظرة فى عصر سيطرة الضباب؟! . . من يستطيع فى الزمن الباهت أن يدرك خطوه الواسع وآفاق حروفه الناصعة؟!

تعرفه . . صداقة عمرها كله منذ وعت . . وقبل أن تعى . . درجت بين يديه . . التصقت به كأنها قطعة منه . . ولكنها عرفته . . كان يقول لها إنها عرفته بما لم يعرفه أحد . . نفذت إلى خبايا وجوده . . كشفت حتى رؤاه المكنونة . . حتى دقائق طبعه . . حتى همسات نفسه . . حتى فلتات خطئه وذرات عيوبه . . تعرفه . . تعرف أنه لغير زمانه يفكر . . فى غير العصر يحيا . . روحه تسبق زمنه . . تسبقه بكثير . . يقين يسطع وسط أكداس الغبش . . غريبا واغل الغربة . . فهل يبقيه الله طويلا يجهد صدره وهو يتنفس تحت أطباق الغيم؟! . . هل يتركه الله يعيش بغير زمان . . بغير مكان يحويه . . شعاع يدلف وسط الغيم؟!

الديك يصيح . . يا ألله . . ها قد قرب الفجر . . دقات الساعة فى يدها تمضى نحو صباح لا تدرى لونه . . تمضى فوق شغاف القلب، تخلع ذراته، ذرة ذرة . . لو تمسك بالليل فلا يدبر؛ لو تطمس قرص الشمس

فلا يطلع؛ لو تصرخ تصرخ حتى تحتل الصرخة وجه الأفق الباهت؛ لو تفقد هذا الوعى المحرق، لو يتركها شيطان الأفكار السوداء تنام؛ لو تأخذها غفلة رقدة. . حتى غفلة رقدة!

رأسها ثقيل. . أثقل من وزن جبال الأرض. . يثقل. . يسقط فوق ركبتيها. . فى الداخل دوامة، كطاحونة الهواء تدور. . كيف ستنتزع الماضى. . كل الماضى من جنبيها؟! . . كيف تعيش ولم يخل العمر منه طوال العمر؟! ... والدار المحزونة كيف ستبقى دون ضياء؟! كيف ستدلج فى غلس الظلمة دون دليل؟! . . ومَنْ القائد حين يغيب القائد طول الرحلة؟! . . ولم تتعلم قط أن ترى الأشياء بدون النور الهادى، بدون العين نافذة الرؤية. . بدون جلاء بصيرة هذا العملاق. . والساحة يطمسها الغبش الجاثم، تتخبط فى عسس الغلس بدون شعاع يكشف أستار الظلمة. . كيف يكون الغد؟!

***

هبت مذعورة من خطفة نوم على صوت زميلتها: «يا بنيتى. . أبشرى يا بنية. . لا تخشى شرا. . الرسول الكريم كان معنا اللحظة؛ صحوت على وقع أقدام خروجه. . قال: «لا تنزعجوا فقد جئت إليه. . وإنى معه اللحظة»!

دوت صرخة كنصل السكين القاطع فى أغوار القلب. . همهم صوت منتحب فى الأعماق: قد غاب إذن من عالمنا تلك اللحظة! . . صمتت صمتت. . غابت فى طيات الصمت. . غرقت فى لجة صمت. .

***

وجاء الصبح فى لون الهم ثقيلا. . صبح يحمل وجه الليل المقفر. .

انتشر الخبر الفاجع فى كل مكان . . فى الداخل . . فى الخارج . . عبر الأسلاك المنتظرة فى شوق ! . . وفى قلق مفزع !

جاء الحارس يبكى، يخلع قبعته يطمس وجه الظالم بالدعوات . . يستمطر السماء اللعنة من رب عادل . . سرا، لا يملك أن يرفع صوته ! . . جاء الرجل الوحشى بوجه أغلف . . وجاء رئيس الفعلة . . وجاء طبيب السجن . . الأصوات تموج؛ لا تخرجها من أغوار الصمت . . لا تأبه . . لا تسمع . . فقد العالم لونه . . فقد العالم وزنه . . فقد الناس وجودا كان لهم . . حتى الأعداء طووا فى طيات العدم الغارق فى اللجة . . لا شىء يثير . . لا شىء يخيف . . لا شىء يفزع فى ملكوت الصمت !

تأتيها الأصوات بغير معالم . . كأزيز النحل تطن . . عيناها مغمضتان عن العالم . . يجوس البصر التائه فى ملكوت غامض . . تختلط الأشياء . والزمن الماضى والحاضر . . وهول اليوم ويوم الحشر . .

صوت الأم حزين يخترق فراغ الساحة . . تخترق الكلمات سكون الصمت تقول : ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه . . . ﴾ . من أغوار الصمت يجىء الرد : «أخى أحب إلىّ مئات المرات من نفسى التى بين جنبى؛ ولكن الله ورسوله أغلى وأحب ! » .

يهمس الطبيب طيب القلب يواسى . . يخترق الهمس سكون اللجة . . يدلف حتى أغوار الباطن : «شهيد هو . . تعتقدين بغير شك . . . » . . . قالت فجأة فى تصميم راسخ : «بل أكثر إن شاء الله؛ (سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى حاكم ظالم فأمره ونهاه فقتله) . . قالها هو فى وجه الكفر الطاغى ! !

الفهرس

رقم الإيداع ٢٩٠٩ / ٩٨
I.S.B.N. 977 - 09- 0444-9

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت . ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أحراش الليل

لا أستطيع أن أصنف هذه المجموعة التي نطلق عليها تجاوزا «قصصا قصيرة» في خانة القصص! فذلك موكول إلى المتلقي الناقد، وأنا لست بناقدة.. فقد يكون فيها ما يدخلها حقا في باب القصص، وقد يكون فيها ما يخرجها منها؛ وقد يكون فيها ما يضعها في خانة السير الذاتية، وقد لا تنطبق عليها شروط السير الذاتية بكاملها؛ وهي قد تجمع بين ملامح القصة الطويلة والأقصوصة معا؛ وهي قد تخرج من ذلك كله إلى شيء آخر جديد.. وهي قد تدخل ساحة الأدب من بابها الواسع وقد لا يقبلها أصلا في رحابه!

أقول إن هذا كله لا يشغلني كثيرا، فهو من شأن غيري! ولكني فقط أحب أن أسجل هنا أنني لم أتدخل، كما أشرت إلى ذلك من قبل، في الصورة التي تخرج عليها تلك التجربة، ولم أتدخل كثيرا في صورة التعبير، ولكني تركته يخرج على سجيته، فجاء على هذه الصورة التي أرجو لها أن تتسلل في نفس القارئ فلا تعنته، ولا يملها!

حميدة قطب